أدبيّات النّهوض

نصر ونهضة

قيم النّهوض:

الحريّة - العدالة - الاستقلال الوطنيّ

الشهيد مرتضى مطهري

تعريب: محمد حسن زراقط

معهد المعارف الحكمية
للدراسات الدينية والفلسفية
The Sapiential Knowledge Institute
For Religious & Philosophical Studies

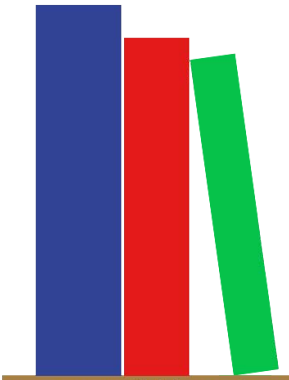

مكتبة
مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)

moamenquraish.blogspot.com

قيم النهوض

الحرية - العدالة

الاستقلال الوطني

اسم الكتـــاب: قيم النهوض: الحرية - العدالة - الاستقلال الوطني

المـــــــؤلف: مرتضى مطهري

تـعـــــريـب: محمد حسن زراقط

النـــــــاشر: **معهد المعارف الحكمية** (للدراسات الدينية والفلسفية)

تصميم الغلاف: Idea Creation

إخـراج الكتاب: Fadel Graphic

عـدد الصفحات: ١٠٢

القـيـــــاس: ١٤.٥ X ٢١.٥

تـــاريخ الطبـع: أيار ٢٠٠٧

قيم النهوض

الحرية - العدالة - الاستقلال الوطني

مرتضى مطهري

تعريب: محمد حسن زراقط

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

[١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م]

إن الآراء والاتجاهات والتيارات الوارد الحديث عنها في هذه السلسلة، لا تعبّر بالضرورة عن رأي معهد المعارف الحكمية، وإن كانت في سياق اهتماماته المعرفية .

معهد المعارف الحكمية
للدراسات الدينية والفلسفية

العنوان: حارة حريك - الشارع العريض - سنتر صولي - ط٢ شمالي
تلفاكس: ٠١- ٥٤٤٦٢٢ Email: almaaref@shurouk.org

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

سيرة حياة الشهيد مطهري.....١

تقديم.....١١

القسم الاول

الحرية بين الاسلام واعلان حقوق الانسان

حرية العقيدة.....١٩

ماهية الفكر.....٢٠

مقارنة بين المسيحية والإسلام.....٢١

حرية المعتقد.....٢٣

دواعي اختراع النحل.....٢٤

حرية المعتقد بين القبول والرفض.....٢٤

مكرمة وهمية.....٢٦

نماذج للحرية النبوية.....٢٦

استنتاج.....٢٨

الدافع الغربي للتحرر.....٢٨

خطأ الإعلان العالمي للحقوق.....٣٠

هوامش القسم الأول.....٣٤

القسم الثاني

الحرية المسؤولة بوصفها مدخلا للايمان والرشد السياسي

الإسلام وحرية التفكير.....٢٩
الحرية والإكراه ومتعلقاتها.....٤٠
الإجبار والأخلاق.....٤١
النضج الفكري والإكراه.....٤٢
نماذج من الحرية الإسلامية.....٤٦
نموذج من تجربة شخصية.....٥١
هوامش القسم الثاني.....٥٤

القسم الثالث

الحفاظ على الكوية بوصفه قيدا للحرية

تجربة كلية الإلهيات.....٦١
هوامش القسم الثالث.....٦٧

القسم الرابع

العدالة الاجتماعية

العدالة الاجتماعية.....٧١
العدالة وأصالتا الفرد والمجتمع.....٧٦

التصور الإسلامي للعدالة.....٧٨

هوامش القسم الرابع.....٨٠

القسم الخامس

الاستقلال والحرية

الاستقلال والحرية.....٨٣

التبعية الاجتماعية.....٨٣

التبعية الثقافية.....٨٥

هوامش القسم الخامس.....٩٠

القسم السادس

المعنوية في الثورة الاسلامية

المعنوية في الثورة الإسلامية.....٩٥

هوامش القسم السادس.....١٠٢

سيرة حياة ومسيرة فكر

الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري

مطهري الولادة والنشأة

ولد الشهيد مرتضى مطهري في الثاني من شهر شباط لعام ١٩٢٠م.، في مدينة فريمان من توابع مشهد، في عائلة معروفة بالعلم والتقوى. وكان اسما على مسمى في عائلته التي لم يرد الله أن يطفئ نور الحكمة والهداية والمعرفة فيها بل أراد لعائلة الشيخ محمد حسين مطهري أن تبقى على الدرب نفسه، فكان أن استلم الشعلة بعد الوالد العلامة ابنه مرتضى مطهري، في أحلك الأزمنة من تاريخ إيران المعاصر.

ولا تتوفر الكثير من المعلومات عن فترة طفولته ولكن سيرة مطهري الرجل ومسلكه يكشفان عن طهارة الحداثة والبعد عن الكثير من الأدناس التي لا شك في أنها كانت ستترك أثرها في الكبر لو حصلت في الصغر. تلقى الشهيد مرتضى مطهري علومه الأولى في الكتّاب كغيره من الأطفال في تلك الفترة؛ حيث تعلم قراءة القرآن وأوليات العلوم وكان أبرز معلميه في هذه المرحلة أبوه الشيخ محمد حسين مطهري الذي يبدو أنه كان ذا دور بالغ في توجيه مسيرة حياته في سنواته اللاحقة. وقد بدأ يعتمل في قلبه مطلع العقد الثاني من عمره شوق شديد يدفعه إلى التفرغ لدراسة العلوم الدينية وعدم الاشتغال بغيرها، وكان ذلك منه في فترة تضج باضطهاد رضا خان (والد محمد رضا بهلوي الذي كانت الثورة الإسلامية ثورة على حكمه). ومن هنا كان الكشف عن هذا الشوق الذي ظل يكابده مدة من الزمن دون

أن يُطلع عليه أحدا مفاجأة للمحيطين به. وبدأ الناصحون والمشفقون على شبابه بالنصح له، ودعوته إلى اختيار طريق آخر غير ما أراد غافلين عن أن عمق الرغبة في هذا الأمر تحول دون الاستجابة للناصحين والمشفقين. وبعد المنع والإصرار كان له ما أراد وما كان لهم إلا التسليم.

في مشهد

في عامه الثاني عشر يمم شطر الحوزة العلمية في مشهد ليفتتح مرحلة جديدة من حياته. وأهم ما كان يشغله فيها معرفة الله؛ حيث كان يوصل الليل بالنهار، والنهار بالليل مفكرا في مبدأ الوجود وغايته، إلى حد أنه كان يرى أن البحث والدرس والانشغال بأي مسألة أخرى عبث قبل رفع الحيرة والشك عن نفسه. وفي هذا السياق وبهذا الغرض كان كل اشتغاله العلمي حتى دراسته للغة العربية والمنطق لم تكن إلا مقدمة لهذا الهدف الأسمى. وفي هذه المرحلة كان لأحد رجالات الحوزة العلمية في مشهد الدور الكبير في رعاية الضيف الجديد وحثه على متابعة تحصيله العلمي والإسراع به نحو قطع المراحل العلمية في أقصر وقت ممكن، ولم يكن هذا الرجل إلا الميرزا مهدي الشهيدي، ما جعله لا يقيم في مشهد إلا سنوات أربع ينهي فيها دراسة المقدمات العلمية ليتوجه بعدها إلى الحوزة العلمية في قم.

مطهري في قم

قصد مطهري مدينة قم حوالي عام ١٩٣٨م. وقضى فيها حوالي خمس عشرة سنة كان لها الدور الكبير في تكوينه وتنشئته العلمية ورسم مساره وتحديد مصيره الفكري والتبليغي. في قم حضر دروس ومحاضرات عدد كبير من علمائها منهم:

الإمام الخميني الذي كان له أثره على فكر الشهيد مطهري العلمي إلى حد ما ومسيرة حياته العملية الجهادية إلى الحد الأكبر، حيث لازم درسه في الأخلاق مدة طويلة من الزمن، حتى تحول الإمام الخميني إلى مرب وأب روحي له. ولشدة تعلقه بشخصه نجده يغادر

سيرته في عدم الثناء على الأحياء حتى لو كانوا أساتذة له، إذا كان لهم موقع اجتماعي يخشى معه من تهمة التملق؛ وذلك كما يصرح في سياق حديث له عن السيد البروجردي، ولكنه عن الإمام الخميني يقول: «لقد عايشت هذا الرجل العظيم مدة اثنتي عشرة سنة حين كنت أتلقى التعليم على يديه، وعلى الرغم من هذه المعرفة المباشرة، عندما زرته في باريس تعرفت على أبعاد جديدة في شخصيته، زادت حيرتي فيه، بل زادت إيماني به. عندما عدت سألني بعض الأصدقاء، عما شاهدت فقلت: رأيت عند هذا الرجل إيمانا بأربعة أمور:

الإيمان بالهدف: بحيث لو اجتمعت الدنيا بأسرها لما استطاعت أن تزيحه عن هذا الهدف الذي اختاره لحركته.

الإيمان بالسبيل: والطريق الذي اختاره للوصول إلى هدفه وهو يشبه في هذا الأمر النبي محمدا صلى الله عليه وآله.

الإيمان بالأمة: نعم يؤمن الإمام الخميني بأمته وشعبه ولا أجد بين من أعرف من الأصدقاء من رجال الثورة، أو من غير رجالها من له ثقة بالشعب كثقة الإمام الخميني، حتى أن بعض الناس يحذرونه من ترك الناس له، ويطلبون منه عدم الرهان الكامل على الناس، ويبدو أن الأيام تكشف عن صدق ظنه بالأمة والشعب.

الإيمان بالله: الإيمان بالله تعالى هو فوق كل ما تقدم وأهمه، لقد قال لي مرة في جلسة خاصة جمعتنا: لسنا نحن من يقوم بهذه الأعمال إنني أشعر بيد الله تسيرنا وتوجهنا.»

وكان السيد البروجردي واحدا من أبرز أساتذة الشهيد مطهري في علمي الفقه والأصول وهو يعترف له بالفضل والعلم في شهادة تكشف عن عظمة الأستاذ وعظمة الشهيد وخلوص نيته وبعده عن التملق؛ حيث يقول: «**... إن السيد البروجردي (أعلى الله مقامه) فقيه حقا. وانني وإن كنت بعيدا عن التملق والمديح للأحياء حتى لو كانوا من**

أساتذتي إلا أنني الآن وبعد وفاته رحمه الله أجد نفسي مضطرا لأدائه بعض حقه علي، فإنني أعتقد أن السيد (رحمه الله) كان فقيها مميزا ومجاهدا كبيرا، وكان عالما متبحرا له منهجه وطريقته الخاصة في كل العلوم التي طرقها من الفقه والأصول إلى التفسير والحديث والدراية، ومن أهم امتيازات السيد رحمه الله إحاطته ومعرفته بسائر الفرق الإسلامية. وعلى مستوى الاعتقاد والإيمان، فإنه كان يعيش التوحيد عمليا وقد لمست ذلك في حياته وتصرفاته التي كانت تكشف لي عن ثقته الكبيرة بالله وتوكله عليه.»

ولا يمكن عند الحديث عن أساتذة الشهيد مطهري في قم، تجاوز العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، وعلى الرغم من عدم طول المدة الزمنية للتلمذ الرسمي، إلا أنها كانت عميقة الأثر في نفس الطرفين الأستاذ والطالب. ويبدو أن هذه العلاقة الرسمية استمرت مدة عامين ونصف درس فيها الشهيد مطهري على السيد العلامة فلسفة ابن سينا، مع مشاركته في هذه الفترة في بعض الندوات الخاصة التي كان يعقدها السيد لمناقشة الفلسفة المادية والتي كانت مقصورة على خواص طلابه وغير مفتوحة للعموم. ومما يظهر عمق العلاقة العلمية بين الطرفين أن التلميذ شارك أستاذه في شرح كتابه المهم **«أسس الفلسفة والمذهب الواقعي»** ومن المعروف أن هذا الكتاب من أهم ما كتبه السيد الطباطبائي في الفلسفة وهو مؤلف من قسمين، الأصل للأستاذ والحواشي والشروحات التي تتجاوز الأصل بكثير في بعض الأحيان للشهيد مطهري. ويكشف عن البعد الروحي في العلاقة بين الطرفين التزام الشهيد مطهري بتعبير «روحي فداه» عند ذكر أستاذه أثناء حديثه أو خلال بعض كتاباته.

مطهري في طهران

افتتح مطهري مرحلة جديدة من حياته عندما غادر قم إلى طهران وبدأ فيها إنتاجه العلمي ونشاطه العملي. وكان من أول ما خط قلمه مقدمة كتاب أصول الفلسفة وحواشيه التوضيحية عليه؛ حيث نشر المجلد الأول بعد عام من استقراره في طهران.

وتوزعت نشاطات مطهري في طهران بين التأليف والكتابة والتدريس، حيث كان يشارك في التدريس في الحوزة العلمية في مدرسة مروي التي ظل يدرس فيها إلى ما قبل ثلاث سنوات من استشهاده، ومع التدريس الحوزوي الذي يبدو من البديهيات بالنسبة إلى مثل الشهيد مطهري درس في جامعة طهران في كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية وكان من القلائل من علماء الحوزة العلمية الذين يتولون التدريس في الجامعة على الرغم من عدم حصوله على شهادة أكاديمية رسمية، وقد كان عرفا معتمدا في الجامعات الإيرانية أن يتولى التدريس من لا يحمل الشهادة الجامعية إذا توفرت فيه أهلية أداء هذه المهمة. ومن هنا، يكشف اختياره للتدريس في الجامعة عن مرتبته العلمية العالية بحيث تغنيه كفاءته وجدارته المعروفة عن الحاجة إلى الشهادة الأكاديمية الرسمية. ولم تكن الحوزة العلمية والجامعة ساحتان لا ثالث لهما في حياة مطهري الدعوية والتبليغية بل كان له حضور فاعل في المنتديات الثقافية والفكري ومن أهمها حسينية الإرشاد التي كان أحد أبرز المحاضرين فيها لمدة طويلة[1]، مضافا إلى كونه محاضرا شبه دائم في مسجد الجواد واللجنة الإسلامية للمهندسين واللجنة الإسلامية للأطباء وغيرها من المنتديات التي كانت ناشطة في تلك الفترة.

الشهيد مطهري والعمل السياسي

لم يكن مطهري مفكرا فحسب، بل ناشطا سياسيا ومجاهدا من الطراز الأول من المجاهدين اللذين كان لهم دور بارز في العمل الثوري في خدمة الثورة الإسلامية. وقد كان يمثل في فترة من الفترات صلة الوصل الأساسية بين الإمام الخميني (رحمه الله) وبين الناس وبخاصة في ما يعرف بانتفاضة ١٥ خرادد التي تعد من المحطات الحاسمة في مسيرة الثورة الإسلامية، حيث كان له في هذه الليلة موعد مع السجن بعد خطاب ألقاه في هذه المناسبة أدى به إلى الدخول إلى أحد سجون الشاه مدة ٤٣ يوما لم يكن ليفرج عنه بعدها إلا بضغط كبير من علماء الحوزة ومحبيه من عامة الناس، وبعد خروجه من السجن عينه

الإمام الخميني مندوبا في ائتلاف الجمعيات الإسلامية، وكان يمارس دوره السياسي الثقافي في أماكن عدة أبرزها بعد حسينية الإرشاد مسجد الجواد ومسجد جاويد (الخالد) ولشدة تأثيره وخشية السلطة وقتها منه صدر قرار بمنعه من اعتلاء المنبر عام ١٩٧٥م. وقد تولى بعض المهام الحساسة في حياته السياسية بل وحياة الثورة نفسها. وكان له لقاءان مهمان بالإمام الخميني قبل عودته إلى إيران أحدهما في النجف الأشرف عام ١٩٧٦م. والآخر في باريس حيث كلفه الإمام بتشكيل مجلس خاص بقيادة الثورة باسم: «**مجلس شورى الثورة**» وقد تولى مطهري المهمة وبعد إنجازها عرضت على الإمام وتم الإعلان عن هذا المجلس في بيان صادر عن الإمام الخميني نفسه من منفاه في باريس.

وكان له بعد انتصار الثورة وعودة الإمام الخميني دور بارز في التخطيط لمستقبل الثورة ورسم مسارها. ومن الأدوار التي تنسب إليه دوره في الحد من نفوذ منظمة «**مجاهدي خلق**» التي لم يكن الشهيد مطهري راضيا عن توجهاتها الفكرية وأسلوبها في العمل السياسي حيث كان يتهم قياداتها بنوع من النفاق في العمل السياسي. وإليه تنسب فكرة تأسيس حرس الثورة وهي الجهة المسلحة الأولى التي تولت مهمة الدفاع عن الثورة في مقابل الكثير من الأخطار والتشكيلات المسلحة التي كانت تتربص بالثورة والثوار الدوائر. ومن المهام التي مارسها والتي تكشف عن ثقة الإمام الخميني تكليفه بالإشراف على عمل الإذاعة والتلفزيون بعد أن كلف قطب زادة بإدراتهما، فكان رأي مطهري هو الحاسم في موارد الاختلاف.

ولم يكن مطهري إيرانيا قوميا بل كان الإسلام والمسلمون في العالم همه الأول وما إيران إلا ساحة من ساحات المواجهة، ومن هنا كان لفلسطين نصيب من اهتمام مطهري ونشاطه السياسي، ويسجل في تراثه الحافل خطبة تاريخية حول فلسطين في عاشوراء حث فيها الشعب الإيراني على الوقوف إلى جانب إخوانهم في فلسطين وأعلن فيها عن فتح حساب مصرفي يهدف إلى جمع التبرعات لدعم القضية الفلسطينية بالتعاون مع جماعة من العلماء منهم السيد الطباطبائي. وما يعطي لوقفة

مطهري هذه معناها مجموعة من العناصر منها أنها كانت إبان الثورة وفي وقت الحاجة إلى الدعم، والعنصر الآخر أنها كانت في ظل حكم مستبد يحاول سوق المجتمع الإيراني إلى محل آخر غير محله الطبيعي.

جهاده الفكري

وقبل ختام هذه السطور حول حياة مطهري تجدر الإشارة إلى أن العمل السياسي الذي كان يؤديه مطهري لم يكن عملا سياسيا بالمعنى المباشر فقط، بل ربما كان الجانب الأبرز في عمله السياسي البعد غير المباشر، وذلك أن نظرة إلى كتابات مطهري الفكرية والتاريخية تكشف عن أبعاد سياسية لها. مثلا: عند رواج النزعة القومية الفارسية في إيران التي كانت تهدف في مآلاتها إلى تلقين الشعب الإيراني أن الإسلام دين العرب وليس دين الإيرانيين، في تلك الفترة نشر كتابه حول الخدمات المتبادلة بين الإسلام وإيران، وفي ظل احتدام الصراع السياسي بين التيارات المادية كتب مجموعة من كتبه حول المادية والماركسية، وعندما بدأت بعض التيارات السياسية تنشر ثقافة الغرب بلبوس إسلامي حول المرأة وغيرها نشر أهم كتاباته حول المرأة تحت عنوان نظام حقوق المرأة في الإسلام. يضاف إلى ذلك أن مطهري كان يقاتل على جبهتين فكريتين جبهة الخارج الثقافي ومواجهة التيارات الداعية إلى الإصلاح والتجديد وهي باعتقاد مطهري تهدف إلى محو الهوية الإسلامية الأصيلة، وفي هذا المجال تصنف كل كتاباته التي أشرنا إليها قبل قليل. والجبهة الثانية التي كان له حضور فاعل فيها هي جبهة مقاومة التحجر والتمسك بما علق بالدين من أوهام، وفي هذا المجال تصنف بعض محاولاته المهمة لإصلاح واقع الفكر الإسلامي وتخليصه من شوائبه وإظهاره بصورة تتناسب مع العصر الراهن.

أبرز عناوين نتاج مطهري الفكري:

١- الملحمة الحسينية

٢- رحلة في السيرة النبوية

٣- رحلة في سيرة الأئمة الأطهار

٤- القوة الجاذبة والقوة الدافعة في شخصية الإمام علي عليه السلام.

٥- الولاءات والولايات

٦- النبي الخاتم

٧- النبي الأمي

٨- الإسلام ومتطلبات العصر

٩- نظام حقوق المرأة في الإسلام

١٠- الحركات الإسلامية في المائة سنة الأخيرة

١١- حول الجمهورية الإسلامية

١٢- حول الثورة الإسلامية

١٣- الخدمات المتبادلة بين الإسلام وإيران

١٤- العدل الإلهي

١٥- الدوافع نحو المادية

١٦- نقد الماركسية

١٧- فلسفة التاريخ

١٨- أصول الفلسفة والمذهب الواقعي

١٩- شرح المنظومة

استشهاده

استشهد العلامة مرتضى مطهري بتاريخ الثاني من شهر أيار لعام ١٩٧٩م. أثناء خروجه من اجتماع في منزل الدكتور سحابي عضو مجلس شورى الثورة على يد جماعة كانت تطلق على نفسها اسم الفرقان. وشيع

في طهران ودفن في قم قرب ضريح السيدة المعصومة (عليها السلام)، ويبدو أن الأسباب التي أدت إلى استشهاد مطهري كانت خليطا بين الفكر والسياسة؛ حيث إن جماعة الفرقان هي تنظيم مسلح أسسه شخص باسم اكبر ودرزي الذي درس مدة قصيرة في الحوزة العلمية ولبس لباس رجال الدين لكنه بعد مدة قصيرة خلع لباس رجال الدين وتصدى لتفسير القرآن الكريم بطريقة لم يرتضها الشهيد مرتضى مطهري وعمل على مواجهتها، وأصدر بالاتفاق مع المهندس بازكان بيانا يستنكر فيه هذه النزعة في تفسير القرآن الكريم، وكان يعرِّض بهذه الجماعة في كتاباته ومحاضراته التي كان يلقيها في غير مناسبة. ويبدو أن هذه الجماعة شعرت بأن مطهري وغيره من شخصيات الثورة يشكلون سدا في وجههم فكان القرار بإزالتهم، وكان مطهري الضحية الثانية من ضحاياهم، وقد سبقه محمد ولي قرني، ولحقه الدكتور مفتح وغيره مثل مهدي عراقي، والسيد محمد على القاضي وآخرون.

شهادات العلماء في حقه

أ- كلام الإمام الخميني في مطهري

لقد نعى الإمام الخميني مطهري وأبَّنه بما لم يؤبن به إلا القلة القليلة من كبار رجالات الثورة وشهدائها وقد صدرت عنه في حق الشهيد أكثر من رسالة وموقف في يوم استشهاده وفي الذكريات السنوية لاستشهاده، وخشية التطويل نكتفي بالإشارة إلى شيء مما قاله في مناسبة شهادته: **«أعزي الإسلام والأولياء والعظام والأمة الإيرانية المجاهدة، باستشهاد الفقيه الكبير والفيلسوف المفكر الشيخ مرتضى مطهري قدس سره....**

إنني فقدت باستشهاده ابنا عزيزا، وواحدا من الشخصيات التي أعدها حاصل عمري. ولقد ثلم في الإسلام بشهادة هذا الولد البار والعالم الخالد ثلمة لا يسدها شيء. ومع العزاء أبارك للأمة بشهادة هذا العظيم المضحي الذي كان ينير دروب العالمين في حياته وكذلك سوف يبقى بعد وفاته. وإني لأحمد الله أن وفقني إلى تربية أمثاله من الذين ينفخون الروح في الأموات ويبددون الظلمات بفكرهم النير.

هيهات إن الاغتيال لا يغتال سوى الجسد، ولكن الأمة سوف تزداد إصرارا وتصميما على السير قدما لقطع يد الاستعمار وأزلام النظام البائد، ولن تستكين أبدا. إن الإسلام العزيز نما واتسعت دائرة انتشاره بالتضحيات والفداء، وهذه سيرته منذ عصر الوحي وبدء الدعوة انتشر باقتران الشهادة بالشهامة. وكان القتال في سبيل الله والمستضعفين في رأس قائمة أولويات الإسلام وبرامجه: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾[1] إن أولئك الذين قاربوا الموت وذاقوا طعم الهزيمة يحسبون واهمين أنهم بسلوكهم غير الإنساني يخيفون تخويف المجاهدين في سبيل الله. لا يتوقع هؤلاء المجرمين أن كل قطرة دم يريقونها وشعرة تسقط من شهيد إلى الأرض تنبت أشخاصا أكثر تصميما وأشد عزيمة. بل لو أنكم قتلتم واغتلتم جميع أفراد الأمة ولم يبق إلا شخص واحد سوف يقاوم عودتكم إلى سلب مقدرات الأمة والسيطرة عليها. إن الأمة التي نهضت متكلة على الله وحده لإحياء الإسلام لن تعرف التراجع، والهزيمة، لقد عقدنا العزم على الجهاد والشهادة في سبيل الله.....»

شهادة السيد الخامنئي في حقه

«قلما يوجد مثل الشهيد مرتضى مطهري، بهذا الاستعداد وهذه الهمة العالية للبحث والتنظير. إن كل كلمة أو محاضرة صدرت عنه تمثل عملا تخصصيا عظيم الفائدة. ولذلك من المناسب أن تكون أعماله الفكرية والفلسفية محورا لدراسات عميقة. وإن آثار مطهري وأفكاره تمثل الأساس الفكري الذي يقوم عليه نظام الجمهورية الإسلامية»

---

[1] سورة النساء، الآية ٧٥.

تقديم

لكل بحث علمي أو مقالة فكرية أجواؤها وبيئتها التي صدرت عنها كما لها غاياتها، وبتعبير الفلاسفة لكل بحث علمي علله المادية والصورية والغائية والفاعلية. والبحث عن النهوض وقيمه لا يحيد عن هذه المسلمة المقبولة إلى حد كبير. وهذا ما سوف نحاوله في هذه المقدمة. التي سوف نعالج فيها مجموعة من المبادئ والأفكار التي تضفي على البحث ومبادئه وغاياته وضوحا ربما كان محتاجا إليه.

مفهوم النهوض

النهوض مصدر من الفعل نهض وهو في الأصل القيام بعد القعود أو النوم، وفي الاصطلاح يطلق هذا المصطلح على التحول الاجتماعي في مجال من المجالات المعرفية أو الاقتصادية أو الثقافية أو غيرها. فيقال نهضة ثقافية ونهضة اقتصادية وما شابه. ويطلق في اصطلاح أكثر تحديدا وتضييقا على عصر من العصور وحقبة من حقب التاريخ الإنساني هو عصر النهضة الأروبية مع ما يحتف بهذه النهضة من مفاهيم ابتكرت أو تم تعويمها.

ونحن عندما نستخدم مصطلح النهضة والنهوض لا نقصد بالضرورة الالتزام بهذا المصطلح في بيئته التي نبت فيها، بل نرمي إلى استخدام هذا المصطلح في بيئته الداخلية ومعناه القريب من المعنى اللغوي للنهضة، ونقصد به كل تطور اجتماعي يصيب مجتمعنا الإسلامي. ومن هنا، يفضل بعض الكتاب استخدام مصطلح النهضة الحسينية بدل الثورة الحسينية. وعلى أي حال إذا سلمنا أن النهضة هي تطور يطرأ على الاجتماع الإنساني، فإن ما يترتب على هذه المسلمة التي

تقرب من البديهيات هو التساؤل عن دور الإنسان في النهضة؟ وعن القيم التي ينبغي أن تكون إطارا عاما للنهضة؟

دور الإنسان في التغيير

يدور جدل واسع بين المنظرين للتغيير حول دور الإنسان في التغيير الاجتماعي؛ حيث هناك من يرى أن الإنسان هو الحلقة الأضعف في سلسلة علل التغير الاجتماعي وما التغير إلى صيرورة حتمية خاضعة لقوانين التاريخ وعوامل الاقتصاد وهذا ما يعبر عنه بالمادية التاريخية في بعض صورها وتطبيقاتها؛ حيث يعتقد الكثير من المفكرين الذين يدورون في الفلك الماركسي أن المحرك الاجتماعي الأساس هو الصراع الطبقي، وهذا الصراع يؤدي إلى أو يرتبط بتبدل وسائل الإنتاج. وما سوى ذلك فهو توابع ولوازم لهذا التغير.

وفي مقابل هذه الرؤية هناك من يرى أن التحول الاجتماعي لازم من لوازم الاختيار الإنساني وفق القاعدة القرآنية التي تقرر سنة من سنن الله في حركة التاريخ وهي قوله تعالى في أكثر من موضع من كتابه الكريم ومنها هذه الموارد:

١- ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٢]

٢- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣]

٣- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[٤]

ويفضي التأمل في هذه الآية إلى أن لله سننا تحكم حركة التاريخ وتطور المجتمعات أو انحلالها ولكن هذه السنة تتألف من ركنين أو فقل من شرط ومشروط والشرط في الآيات الثلاث هو أمر إرادي يتعلق باختيار الإنسان وإرادته؛ الأمر الذي يطلق عليه السيد الشهيد الصدر

المحتوى الداخلي للإنسان، ويقرر أن كل تغيير اجتماعي هو تغيير في البناء الخارجي مرهون بتغير البناء التحتي أو المحتوى الداخلي للإنسان.

وعندما تكون النهضة تغيرا اجتماعيا، فهي خاضعة لسنة الله في حركة التاريخ المشروطة بالإرادة والاختيار الإنساني. ومن هنا كان لا بد من البحث عن الأجواء المحيطة بهذا الاختيار وقيمه الحاكمة له.

قيم النهوض

للنهوض شروط وعناصر تشكل بيئة متكاملة تضمن لهذه النهضة الوصول إلى غاياتها المتوخاة منها. ومن أهم هذه القيم ما يحاول مطهري معالجته في هذه المقالات التي نقدمها إلى القارئ:

١- الحرية

٢- العدالة الاجتماعية

٣- الاستقلال

الحرية

وهذه القيم الثلاث مترابطة إلى حد يصعب على المرء ترتيبها ودعوى أن أحدها مقدم على الآخر فإن الحرية قد تبدو لأول وهلة على رأس قائمة القيم المطلوبة لتحقيق النهضة ولذلك كانت محور اهتمام الأديان السماوية جميعا، وبخاصة الإسلام حيث حدد هدف الدعوة الإسلامية بـ **«إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد»** وعندما يخرج المرء من عبادة العبد المحدود ليكون عبدا للمطلق الذي لا يحده حد، يكون قد وصل إلى أقصى درجات التحرر والانعتاق وتتأصل حريته كلما زاد غوصا في لجة العبودية للمطلق. وقد بني الدين بنظر مطهري على الحرية وفق قاعدة: **«لا إكراه في الدين»**. ومن هنا يفتخر مطهري بأن الحرية التي هي مصدر اعتزاز للثورة الفرنسية وأحد

شعاراتها أقرت في الإسلام بشكل أولى وأوفق بقيمة الإنسان حيث امتازت بأمور منها:

إنها حرية مسؤولة: وذلك أن الحرية ليست قيمة مطلقة وإنما هي إطار فالحرية لا يمكن أن تكون مطلقة من كل قيد في أي مذهب من المذاهب أو تيار فكري من التيارات، وإذا كان لا بد من تقييدها فلتقيد بما يناسب موقع الإنسان في هذا الكون. والقيد هو أن يكون الإنسان حرا في التفكير للوصول إلى الحق وفق قواعد الفكر والمنطق السليم.

الحرية تكليف ومسؤولية: ليست الحرية عند مطهري منحة تقدم للإنسان وتهدى له إن شاء قبلها وتمتع بها وإن شاء رفضها. بل الحرية مسؤولية وتكليف ينبع من داخل الإنسان ليدعوه إلى كسر ما يكبل يديه وفكره من قيود. وربما لأجل هذا التصور تمت المفاضلة بين دعوتين للتحرر والتحرير، الأولى منهما تقول: **«لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حرا»**، والثانية تقول: **«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»**، وتم تفضيل الأولى من هاتين الدعوتين لأنها تتوجه إلى متعلق الحرية فتدعوه إلى التحرر والجهاد لنيل حريته التي هي منحة إلهية يجب عليه الحفاظ عليها أو استردادها إن صودرت واستلبت.

العدالة الاجتماعية

هذا التقديم للحرية يبدو منه أولوية الحرية وتقدمها على غيرها من القيم المطروحة للبحث والنقاش، ولكن في المقابل هناك تساؤل يصعب الفرار من مقتضياته هو: أي معنى وفائدة ترتجى من الحرية عندما تنعدم العدالة ولا تتساوى الفرص؟ وعندما تتحول الدولة التي يجب أن تكون حارسا ومنظما للحراك الاجتماعي إلى دولة إثرة؟

عندها تكون الحرية شكلا وحرية قول يفقد أي فاعلية أو قدرة على التأثير والفعل، وبالتالي يكون من حق الإنسان أن يقول ما يريد ويرفع الصوت عاليا ويحتج ويعترض ولكنه لا يستطيع ترجمة هذه

الأقوال إلى أفعال. وفي واقع الحال تكون هذه الحرية إطلاقا لحرية اللسان في الحركة والتعبير عن الفكر، وكسرا لكل القيود الظاهرة التي يمكن أن يدان صاحبها واستبدالها بقيود خفية أقبح وأشد لؤما وخبثا. وربما كانت الحرية المعطاة إلى كثير من الشعوب هي حرية من هذا النوع في عصرنا هذا.

الاستقلال

وثالثة الأثافي التي يقوم عليها كيان الاجتماع الإنساني السوي بحسب مطهري هي الاستقلال الوطني بمعناه السياسي والاقتصادي والفكري، وهذا الأخير يحوز الدرجة الأعلى من الأهمية في نظر مطهري المسكون بهمين هم الإصلاح والتجديد وهم الحفاظ على الهوية والأصالة ومن هنا كان المواجه الأول لما يعرف في إيران بالالتقاط فيرى مطهري أن الثقافة لا يمكن أن تستورد من الخارج الثقافة والفكر ينبعان من الداخل ويتم تطويرهما وإصلاحهما. وقد يحق لأحد أن يتأثر بالغرب أو بالشرق ويختار فكره فكرا له ويتقمص ثقافته ثقافة له. ولكن الخطر الذي لا يرضى مطهري بالرضوخ له والاستسلام له هو أن نستورد فكرة من الخارج ثم نعمل على تهجينها وتدجينها ودعوى أنها فكرة داخلية. ربما يكون من حق أي كان أن يعتنق الماركسية مثلا ولكن ليس من حق أن يفسر الإسلام تفسير ماركسيا وعلى الماركسية يقاس غيرها من التيارات والمذاهب.

وفي الختام نشير إلى أن محاولتنا هذه لنشر هذه المقالات التي منشورة في الأصل في كتابين: أحدهما : كتاب حول الثورة الإسلامية، والثاني: كتاب حول الجمهورية، لا تمثل استعادة لمطهري بقدر ما هي مواكبة له؛ لأن الشهيد مرتضى مطهري كان وما زال مصدرا ثرا للتنظير الفكري الذي يجمع الرغبة بالإصلاح والنهوض إلى التمسك بالأصالة وبأن يكون هذا الإصلاح مستمدا من الجذور لا مستوردا لا من الغرب ولا من الشرق. والحمد لله رب العالمين.

محمد حسن زراقط

هوامش المقدمة

[1] تعتبر حسينية الإرشاد من أهم المراكز الثقافية التي كانت ناشطة في زمن الشاه وكانت منبرا مهما للشهيد مطهري، وللدكتور علي شريعتي وغيرهم من علماء طهران ومثقفيها ولم مطهري محاضرا فيها فحسب بل كان من المؤسسين لها ومن أعضاء الهيئة الإدارية لها إلى فترة ثم استقال بعد ذلك وهجرها لأسباب عدة لا يمكن الخوض في تفاسيلها في هذه المقدمة.

[2] سورة الرعد: الآية ١١.

[3] سورة الأنفال: الآية ٥٣

[4] سورة الإسراء: الآية ١٦.

القسم الأول

الحرية بين الإسلام وإعلان حقوق الإنسان

حرية العقيدة

التمييز بين الفكر والعقيدة واشتباه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في هذا المجال

الحمد لله رب العالمين بارىء الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيه؛ سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين.

يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

يتمتع الإنسان في عصرنا الحاضر بالحرية في مجالات عدة، أو فقل: بمجموعة من الحريات الاجتماعية منها: ما يسمى بحرية المعتقد وحرية التفكير؛ اعتمادا على أن الإنسان في جميع شؤون حياته الشخصية لا بد من أن يكون حرا لا يمنعه مانع من اختيار ما يريد، ولا يحجزه حاجز عن تنمية قدراته واستعداداته.

وطاقة التفكير عند الإنسان من أقدس الاستعدادات البشرية وأكثرها حاجة إلى الحرية، ويضاف إليها الحرية في مجال الاعتقاد أو حرية المعتقد. وسوف أشير لاحقا إلى الفرق بين المفهومين، بل إن الفكر من أهم خصوصيات الإنسان التي تحتاج إلى التنمية والتطوير، ويتوقف نموها وتطورها على الحرية. ومن هنا، لا يمكن للإنسان أن

يفكر من دون حرية.

ويضيف الفكر الإنساني المعاصر إلى حرية التفكير حرية المعتقد كما ورد مثلا في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ حيث نقرأ في مقدمته النص الآتي: **«وكان البشر قد نادوا ببزوغ عالم يتمتعون فيه بحرية القول والعقيدة وبالتحرر من الخوف والفاقة، كأسمى ما ترنو إليه نفوسهم، ولما كان من الأساسي أن تتمتع حقوق الإنسان بحماية النظام القانوني إذا أريد للبشر ألا يضطروا آخر الأمر إلى اللياذ بالتمرد على الطغيان والاضطهاد»**[٢].

والمراد من العقيدة في هذا النص معناها العام الذي يشمل العقيدة الدينية كما غيرها من العقائد. ومن هنا، فإننا نجد أن أعظم أحلام الإنسانية الوصول إلى اجتماع إنساني يسمح بحرية اختيار الإنسان لعقيدته التي يريد، كما يسمح بحرية إظهار هذه العقيدة والتعبير عنها. ويتمتع الإنسان في هذا المجتمع إلى جانب ذلك، بالأمن الاقتصادي الكامل وترجمة ذلك هي الوصول إلى مجتمع خال من الفقر، والكلام عينه يقال على غير الاقتصاد من الصعد والمستويات.

ونقرأ في المادة التاسعة عشرة من الإعلان: **«لكل شخص حق التمتع بحرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حريته في اعتناق الآراء دون مضايقة، وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها إلى الآخرين، بأية وسيلة ودونما اعتبار للحدود.»** وسوف نحاول دراسة هذه المسألة للتعرف على موقف الإسلام من الحرية في الفكر والمعتقد.

وهنا لا بد من التمييز أولا بين الفكر والعقيدة، قبل الخوض في تفاصيل البحث، لإزالة اللبس الحاصل في كثير من الأذهان لجهة الخلط بين المفهومين، وعدهما مفهوما واحدا على الرغم مما بينهما من اختلاف وتفاوت.

ماهية الفكر:

الفكر والتفكير طاقة إنسانية تمثل ثمرة العقل الذي يميز

الإنسان عن غيره من الموجودات. حيث يستطيع الإنسان بما وهبه الله من قدرات أن يفكر في القضايا والمسائل التي تعرض له أو تُعرض عليه ليتخذ منها موقفا ويعطي فيها رأيا، كائنا ما كان نوع هذا التفكير، سواء كان استدلاليا أم تجريبيا أم غير ذلك من الأشكال والأساليب المختلفة التي يفكر الإنسان بها، أو المناهج التي يعتمدها في الوصول إلى الحقائق. وقد أقر الله الإنسان على هذا الأمر ومنَّ عليه بهذه العطية وذكّره بها في مواضع عدة من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[3] ومن الطبيعي أن من يمنُّ على الإنسان إعطاءه هذه الموهبة سوف يقره على استخدامها والاستفادة منها لتطوير نفسه والانتقال من حالة الجهل إلى حالة المعرفة والعلم بعد إعمالها. وبالتالي، لا يمكن لا للإسلام ولا لغيره من الأديان أن يمنع الإنسان من استخدام هذه الطاقة المميزة له عن الحيوانات.

ولم يبح الإسلام التفكير واستخدام العقل فحسب، بل رفع هذا العمل إلى مصاف العبادات التي يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى. ولا نجد كتابا في الدنيا، لا دينيا ولا غير ديني، يهتم بالدعوة إلى التفكير والتفكر كاهتمام القرآن الكريم الذي يدعو إلى التفكر في كل شيء تقريبا، من التاريخ، والخلق، إلى أن يصل إلى الله وأنبيائه والمعاد وغير ذلك من الظواهر الدينية والدنيوية. والكتب الدينية التراثية تضج بالحديث عن التفكير. وليست قليلة هي الروايات والأخبار التي تجعل تفكير ساعة خيرا من عبادة سنة، بل ستين سنة، بل سبعين سنة على ما في بعض الأخبار[4]، ويفسر بعض العلماء اختلاف هذه التقديرات باختلاف الموضوع المفكَّر فيه. وقد ورد في بعض الأخبار عن الصادق عليه السلام أنه قال: «**كان أكثر عبادة أبي ذر التفكر والاعتبار**»[5].

مقارنة بين المسيحية والإسلام

وبعيدا عن هذا الأمر، فإن بيننا وبين المسيحية فرقا أساسيا يميز

بيننا؛ ذلك أن الإيمان بالإسلام يتوقف على التفكير والاجتهاد، ولا يقبل الإيمان المبني على التقليد واتباع الآخرين دون وعي ومعرفة، فالإسلام يدعو المؤمن لا إلى الإيمان فحسب، بل إلى المعرفة بالله. وسبب ذلك أن المطلوب من الإنسان عندما يعترف بوحدانية الله أن يعرف الفكرة ودليلها، تماما كما يجب على أي متعلم أن يعرف المسألة الرياضية وحلها وبرهان النتيجة التي توصل إليها، وهكذا تتحول كلمة التوحيد أو شعار: «**لا إله إلا الله**» إلى ما يشبه المسألة العلمية، التي لا تثبت إلا بالبرهان.

والركن الثاني من أركان الإسلام بعد التوحيد هو الإيمان بنبوة النبي محمد ﷺ، وفي هذه المسألة أيضا لا بد من الإيمان بالطريقة نفسها، وعلى هذين الركنين تقاس سائر المعتقدات الإسلامية كقضية المعاد وغيره. وهكذا يتضح أن الترابط بين الإسلام والفكر ترابط عضوي وثيق لا ينفصل أحدهما عن الآخر، ويتضح كذلك أن الإسلام لا يكتفي بإباحة التفكير في أصول الدين فحسب، بل يجعل التفكير مقدمة ممهدة للوصول إلى الإيمان.

وها هنا يتجلى أحد أهم الفوارق بين الإسلام والمسيحية، بل ربما غيرها من الأديان. فالمسيحية مثلا تؤمن بوجود مجالين: مجال الإيمان ومجال العقل والتفكير، ولكل من المجالين قوانينه وقواعده التي لا تشبه بالضرورة قوانين الآخر. والقانون الأساس الذي يحكم مجال الإيمان هو التسليم لا التفكير.

ولاحظوا ما بين الدينين من بون شاسع فأحدهما يعتبر الفكر هو البوابة المفضية إلى الإيمان، والآخر يختار مدخلا آخر لورود ساحة الإيمان هو بوابة التسليم. وبناء عليه ليس التفكير حقا من حقوق الإنسان في الإسلام، بل هو واجب من واجباته الدينية التي من خلالها يؤمن بالله وبسائر أصول الدين التي يجب الإيمان بها. وبعد فتح الإسلام باب التفكير من أجل الدخول في جماعة المسلمين، أبقى

الباب مفتوحا للتفكير اللاحق، فضَمِن حقَّ من عرضت له شبهة، أو شك في فكرة دينية أن يطرح شكه ويناقشه على الملأ دون خوف أو خشية. والتاريخ الإسلامي حافل بأسئلة وشبهات طرحت على النبي محمد صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام وسائر الأئمة عليهم السلام. وقد عرف هذا النمط من الحوارات الفكرية بالاحتجاج، وهذا يكشف عن سعة صدر الإسلام للتفكير والبحث العلمي. نعم إن الإسلام يرحب بالسؤال والنقاش ما دام دافعه البحث والرغبة بالوصول إلى الحقيقة.

حرية المعتقد:

هذا حول الفكر وأما عن العقيدة، فإن كلمة العقيدة في اللغة مشتقة من العقد، وهو الربط، أي عقد القلب على أمر. ومما تقدم، اتضح أن الأساس في الإسلام هو عقد القلب وفق الفكر وقوانينه وأنظمته؛ أي على الإنسان أن يفكر قبل أن يعتقد، فإذا توصل إلى الحقيقة اعتقد بها وعقد قلبه عليها. هذه هي الحالة الطبيعية والسليمة ولكن قد يسلك الإنسان طريقا خاطئا، فيبني عقائده على العواطف والمشاعر بدل العقل والتفكير.

وعندما ندقق في هذا النوع من الاعتقاد نجد أنه أحد أبرز موانع الحرية ومعيقاتها. وأول آثار اعتقاد الإنسان بفكرة إرضاءً لميلٍ أو رغبةٍ نفسيةٍ، أو تقليداً للآباء والأجداد، هو سد الإنسان باب حرية التفكير في وجه نفسه. وهذا هو مصداق القول المشهور: «**حب الشيء يعمي ويصم**»[٦]. نعم إن الحب يعمي بصيرة الإنسان ويسد عليه منافذ التفكير الحر، فلا يعود يرى الحق ولا الحقيقة. وأمثلة هذا النوع من الاعتقاد كثيرة بين الناس في عصرنا هذا كما في العصور السابقة. ما الذي يدعو الإنسان إلى الإيمان بالأصنام وعبادتها، هل هو الفكر الحر أم التقليد الأعمى للآباء والأجداد؟ هل يمكن لإنسان فكر للحظة من الزمن أن يعتقد بحق «هبل» أو غيرها من أوثان الجاهلية بالعبادة. وعلى عبادة هبل تقاس عبادة البقر وغيرها من الآلهة المزعومة.

نعم من المؤسف أن ملايين البشر ممن يعيشون في أيامنا هذه ما زالوا يقدسون البقرة ويقدمون لها فروض الطاعة والاحترام؟ بل هبط بعض الناس إلى ما هو أدنى فعبدوا الأعضاء التناسلية. ويقال: إن بين اليابانيين الملايين ممن يؤمن بهذه النحلة... ومن جهتي فإنني أؤمن بأنه لا يمكن لأي عقل أن ينزل إلى هذه الأودية السحيقة من الانحطاط؛ ولذلك يجب البحث عن مناشئ هذه المعتقدات في محل آخر خارج ساحة العقل والتفكير.

دواعي اختراع النحل

وتتعدد دواعي اختراع هذه النحل، ولا يمكن حصرها في سبب واحد أو أسباب معروفة. مثلا: ربما يريد أحدهم التجارة والاسترباح فيعمد إلى أداة من الأدوات لسبب أو لآخر يجعلها رمزا أو وسيلة استرباح، فيروجها بين الناس وقد لا يجد من يؤمن بها من أعماق قلبه، ولكنَّ الأجيال الآتية والأبناء عندما يرون تقديس آبائهم الظاهري لهذه المظاهر يتعلقون بها، وتصبح رموزا مقدسة عندهم، وتتحول إلى دين ورموز دينية، وجزءا من التراث الوطني وما شابه، ثم يتحول هؤلاء إلى ملكيين أكثر من الملك نفسه كما يقول المثل المعروف، وما أشبه الإنسان بالجبس حيث يكون ناعما ويبقى على نعومته إلى أن يختلط بالماء، فتسطيع تشكيله بالطريقة التي تريد، وأما بعد جفافه فلا مجال للتلاعب بشكله أو محاولة تغييره.

حرية المعتقد بين القبول والرفض

والسؤال المشروع في هذا السياق هو: هل ينبغي بنا مواجهة هؤلاء أم لا؟ وهل يشمل قانون حرية الفكر الإنساني، حرية العقيدة أيضا بحيث تتسع لمثل هذه المعتقدات التي تهبط بالإنسان إلى مستويات لا تنسجم مع منزلته التي جعله الله فيها؟

في هذا الميدان تكمن المغالطة التي وقع فيها الفكر المعاصر؛ حيث يقال: لا بد من إطلاق الفكر الإنساني من عقاله وتحريره من

كل قيد! ومن جهة أخرى: يؤمن أصحاب هذه المقولة بحرية العقيدة أيضا. وعندما نقر بحرية العقيدة بمعناها الواسع المقصود، فإن من الضروري عند هؤلاء شمول مفهوم العقيدة الحرة لعبادة الأصنام والإيمان بها، وعبادة البقرة وتقديسها، بل شمول هذا المفهوم لكل ما يختاره الإنسان عقيدة دينية له. ولكن التدقيق في هذه المعتقدات يوضح أن الإيمان بهذه الأمور مخالف تماما لحرية الفكر الإنساني بل هو قيد من قيوده.

وهنا قد يأتي أحدهم ويمجد الحرية التي كانت تمنحها بريطانيا العظمى للناس، ويرى أن هذا النظام يضمن حرية جميع مواطنيه أو الخاضعين لاستعماره، مهما كانت ديانتهم ومهما كانت معتقداتهم ومقدساتهم حتى لو كانت البقرة أو غيرها. وهنا مكمن اشتباه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي يقر احترام الإنسان وحقوقه بما هو إنسان بغض النظر عن لونه أو عرقه أو دينه، ونحن نوافق على هذا المضمون في الإعلان العالمي ولا نخالفه، ولكن هل يعني حق الإنسان في الحرية والاحترام أن يكون الإنسان حرا في اختيار أي معتقد يريد، ومهما كان اختياره لا بد أن يكون هذا الاختيار محترما، إن هذا لشيء عجاب!

نعم إن هذا من عجائب الأخطاء التي وقع فيها الإعلان العالمي؛ حيث قد يختار الإنسان قيدا وسلسلة يقيد بها نفسه، فهل يعطيه قانون حرية الفكر هذا الحق؟ وهل علينا أن نكله إلى نفسه ونتركه وخياراته ما دام هو قد اختار هذه القيود لنفسه؟

ما هو اللازم المترتب على احترام الإنسان واحترام شخصيته؟ هل هو احترام اختياراته، والثناء عليها حتى لو كانت خيارات خاطئة، وكانت مجموعة من الخرافات والأكاذيب، فتحترم بمبرر كونها مبنية على الاختيار؟ أم أن التصرف الأكثر تناسبا مع حرية الإنسان وكرامته الذاتية واحترامه أن نمسك بيده لنسير به

نحو التكامل ونحرره من القيود حتى لو كان هو الذي اختارها لنفسه؟

مكرمة وهمية

وربما يكون من المناسب الإشارة إلى قضية ملكة بريطانيا التي أظهرت احترامها لمعابد الهنود، بخلعها لحذائها قبل الوصول إلى المكان المخصص لخلع الأحذية احتراما للمعبد. وقد أعجبت هذه الفكرة بعض الناس عندنا وعثر على تصرف مشابه لها في تاريخنا. ويضربون بـ «قورش» مثلا وشاهدا لاحترامنا لحرية الإنسان قبل الإعلان العالمي بمئات السنين، فمع أن قورش لم يكن وثنيا وإنما كان زرادشتيا ولكن مع ذلك عندما دخل إلى بابل أبقى على معابدها ولم يمسها بسوء، وأقر أهلها على عباداتهم ولم يجبرهم على تغيير ديانتهم.

هذا ولكن لنا مقياسنا الخاص في الحكم على الأفعال، فإن من يريد استعباد الناس وارتهانها لا يمكن أن يحسِّن فعله عشرات التصرفات التي تكشف عن حسن النية وإظهار الاحترام لدين الأمم التي يريد استعبادها، ونحن نرى أن هذا النوع من الأفعال قد يبرر بمقاييس السياسة ولكن يصعب تبريره بمقاييس الاحترام الذاتي للإنسان، وهو خلاف الإنسانية.

نماذج للحرية النبوية

بمقاييس الإنسانية والاحترام لإنسانية الإنسان؛ التصرف الصحيح هو تصرف النبي إبراهيم عليه السلام، عندما امتنع عن مجاراة قومه في عيدهم والخروج معهم، وفضل البقاء ليكمل خطته الهادفة إلى إرجاعهم إلى ذواتهم، من خلال تكسير الأصنام واتهام كبيرها بالفعل ليوقظ فيهم الوعي والوجدان. ويبدو أنه نجح إلى حد كبير في خطته حيث يقص القرآن القصة علينا على النحو الآتي: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿قَالُوا

سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ❖ ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ❖ ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ❖ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ ❖ ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ❖ ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾[٧]

والعمل الإنساني المنسجم مع الكرامة الذاتية للإنسان هو ما فعله موسى عليه السلام عندما غاب عن قومه فوجدهم بعد عودته يعبدون العجل. فلم يحترم اختيارهم الخاطئ وإنما هدد وتوعد ونفذ تهديده، وعاتب السامري صاحب الفكرة قائلا: ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ❖ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ❖ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ❖ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ❖ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ❖ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ❖ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[٨]

في أي خانة نضع تصرف موسى عليه السلام، هل هو قيَّد حرية قومه في عبادة العجل؟ بل هل عندما اختار قوم موسى عليه السلام عبادة العجل كان ذلك منهم نتيجة تفكير وتأمل نظري عميق، أم المسألة لم تكن سوى وقوع في أسر الخرافات، والرغبة في تقليد جماعة رأوها تسجد لأصنامها فطلبوا أن تكون لهم آلهة مثل آلهتهم: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[٩].

بلى الصحيح هو ما فعله النبي محمد صلى الله عليه وآله الذي جعل في رأس أولوياته محاربة عبادة الأصنام، ولو أنه لم يفعل لبقي العرب أسرى هذه العبادة إلى يومنا هذا، ولكنا وجدنا العرب يسجدون للأصنام

كما يسجد لها ويعبدها عدد من الأمم المتحضرة في عصرنا هذا كاليابان، وغيرها، ولكنه لم يفعل ورغب بتحرير الناس من أسر عبادة الأصنام: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[10] ومن هذه الآية يتضح أن ما تسميه الحضارة الغربية حرية يسميه القرآن أغلالا وقيودا، ويدعو الناس إلى شكر الله سبحانه أن أرسل إليهم من يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

ويذكر المؤرخون لمعركة بدر بين المسلمين والمشركين أن النبي ﷺ ضحك عندما أحضر الأسرى بين يديه، فظنها هؤلاء شماتة، فقال إنما أضحك لأنني أرى قوما يساقون إلى الجنة مقرنين بالأصفاد[11].

استنتاج

إذا، وبناء على ما تقدم كله لا بد من التمييز بين حرية الفكر وحرية المعتقد، الإسلام لا يعطي حرية الاعتقاد على إطلاقها، وإنما يحترم العقيدة المبنية على الفكر والدليل، ويحترمها. وأما العقائد المبنية على التقليد، والاستسلام للجهالة فلا.

الدافع الغربي للتحرر

وليس هذا الموقف الغربي من الحرية، إلا ردة فعل متطرفة في وجه الكنيسة التي أذاقت العلماء والمفكرين الأمرّين، في القرون الوسطى حيث كانت محاكم التفتيش تأخذ الإنسان على التهمة، وتحكم عليه بأقسى الأحكام وتنفذ في حقه أشد العقوبات، ومن المعلوم أن أهم الجرائم التي كانت تسعى محاكم التفتيش لمحاربتها والقضاء عليها هي الاعتقاد بما يخالف رأي الكنيسة في المسائل العلمية والفكرية. وقد حفظ لنا التاريخ مجموعة من الشواهد على هذه القسوة، الأمر الذي تهون عنده كل مبالغات أهل المنابر عندما يتحدثون عن جرائم بني العباس وبني أمية، في التاريخ الإسلامي. نعم كانت المحاكم تحكم على المفكرين بالإحراق أحياء؛ لأنهم خالفوا الكنيسة في بعض المسائل العلمية التي كانت تتبنى الكنيسة فيها

رأيا موروثاً من الفلسفة اليونانية أو علم الفلك الذي أنتجه اليونان، فكان الاعتقاد بكروية الأرض مثلا، جريمة تحاكم عليها الكنيسة. وقد أدى هذا التضييق على حرية العلم والفكر إلى ردة فعل متطرفة، تدعو إلى تقديس حق الإنسان بحرية المعتقد حتى لو كان اعتقادا بالبقر والأصنام.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية يستند هذا الموقف من حرية المعتقد، إلى موقف فكري يرى في الدين أمرا شخصيا له علاقة بالوجدان الفردي للإنسان، وبالتالي مهما كان معتقد الفرد ودينه الذي اختاره فهو خياره الشخصي الفردي الذي لا يحق لأحد التدخل فيه. وبعبارة أخرى: لا فرق عند هؤلاء بين الدين وبين الفن الذي يلجأ إليه الإنسان لسد حاجته إلى التسلية والترفيه، وبالتالي لا محل للحديث عن الحق والباطل في مجال الدين والمعتقد، بل الأمر تابع بالكامل لما يختاره الإنسان، فما يختاره الإنسان يكون حسنا وما يرفضه يكون قبيحا وباطلا.

والأمر الديني في نظر الفكر الغربي لا يعدو كونه من باب الذوق الشخصي، تماما كما لو أن أحدهم سأل ما هو اللون الأفضل للثياب؟ فلو أنه أجاب بعضهم بأن اللون الأفضل على الإطلاق هو اللون الفلاني. فإن مثل هذا الجواب سوف يكون خاطئا. والجواب الصحيح هو: لا يوجد لون خاص هو الأفضل على الإطلاق ولجميع الناس؛ لأن ترجيح لون على لون تابع للذوق الشخصي لكل فرد، بل حتى الفرد قد يختلف ذوقه من وقت لآخر. والشيء نفسه يقال على الطعام وهكذا. إذا لا يوجد طعام حسن وآخر قبيح، أو لون حسن وآخر قبيح، فالحسن والقبح في مثل هذا المجال تابعان للأذواق الشخصية.

وإذا عدنا إلى القضايا الدينية نجد أن الفكر الغربي لا يعترف للدين بواقعية منفصلة عن الذوق الشخصي للمتدين؛ ولذلك فإن التيار العام في الفكر الغربي المعاصر يعترف بالدين بوصفه أمرا شخصيا،

وأقصى ما يمن به بعضهم على الدين هو الاعتراف بأن الإنسان لسبب أو لآخر يحتاج في هذه الحياة إلى سلوى، ويختار كل فرد ما يسليه ويروح عنه فهذا يختار صنما ينحته، وذلك يختار بقرة، والثالث يختار شخصا باسم عيسى أو غيره، ولا مجال لترجيح اختيار على اختيار ما دام الأمر تابعا للذوق الشخصي.

والمشكلة في نظرنا تكمن في هذه النظرة إلى الدين، الدين برأينا طريق إلى السعادة ويختاره الإنسان؛ لأنه موصل إلى السعادة. أو فقل: إن الدين تماما كالمسائل الصحية، فهل يعتقد أحد بحق الإنسان في اختيار الموقف الذي يراه مناسبا في مجال الطب والصحة؟ حتى لو استحسن أهل بلد من البلدان الإصابة بالرمد الحُبيبي[١٢]، هل نسمح لهم باختيارهم هذا أم أننا ننصحهم ونصوب اختياراتهم. بل نجبرهم على العلاج.

وكذلك إذا اختارت أمة من الأمم الجهل والأمية، وذهب أحدهم وبنى لهم مدرسة فعمدوا إلى المدرسة فأقفلوا أبوابها، هل نحاول إقناعهم بأن التعليم أمر حسن فيه مصلحة لهم في حياتهم أم نحترم خياراتهم ونجاريهم في ما اختاروه من ترجيح الجهل على العلم والمعرفة.

خطأ الإعلان العالمي للحقوق

وهذا الخيار الأخير هو الذي اختاره الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، لماذا لم تعترض وثيقة حقوق الإنسان على التعليم الإلزامي، لماذا لم تقر الوثيقة بحق الناس في اختيار البقاء على الأمية، بل أقرت التعليم الإلزامي في أحد بنودها حيث ورد فيها: «**لكل شخص حق في التعليم. ويجب أن يُوفَّر التعليم مجانا، على الأقل في مرحلتيه الابتدائية والأساسية. ويكون التعليم الابتدائي إلزاميا.**»[١٣]

وأما الدين في هذه الوثيقة، فهو أمر شخصي، يلجأ إليه الإنسان لتلبية حاجة من حاجاته النفسية، ألا وهي حاجته إلى العبادة والتعلق بأمر له طابع القداسة، والخطأ الآخر الذي ارتكبه الإعلان العالمي

لحقوق الإنسان أنه جمع بين العقيدة والفكر في سياق واحد.

ونسجل على هذا الدمج اعتراضين:

الاعتراض الأول: هو أن الدين ليس أمرا شخصيا، وخاضعا للذوق الشخصي فحسب، بل هو أمر له قوانينه كما غيره من الأمور الواقعية المضبوطة بالقوانين.

الاعتراض الثاني: هو أن اختيار الإنسان للدين لا يخضع لقوانين اختياره للون ثيابه، فليس من المناسب للإنسان أن يختار عقيدة تكبل فكره وعقله.

إذاً، حاصل ما نود تقديمه بين يديكم في هذه المقالة هو أن الإسلام يضمن للإنسان الحق في حرية التفكير وحرية العقيدة المبنية على التفكير العقلاني. وأما العقيدة غير المؤسسة على الفكر، فلا مجال لها في الإسلام، ولا يعترف بها في نظامه التشريعي، تماما كما أنه ليس من حق الإنسان أن يجعل من نفسه عبدا للآخرين، ليس من حقه أن يجعل نفسه عبدا لمن لا يستحق خضوع العبودية؛ ولهذه الأسباب سعى الأنبياء عبر التاريخ لمواجهة الخيارات الخاطئة لبعض الناس حين جعلوا أنفسهم عبيدا للأصنام أو لغيرها من الآلهة المزعومة، ولم يحترموا حق الناس في اختيار المعتقد حتى لو كان قيدا يقيد فكرهم وعقلهم ويستعبدهم لما ليس من حقه أن يكون سيدا للإنسان.

هذا ولكنه في الوقت عينه لم يجبر عباد الأصنام على تغيير معتقداتهم بالقوة والإكراه، بل كان يعرض عليهم الدين مقرونا بالدليل المقنع والحجة الواضحة: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[14] فهذه دعوة واضحة للتأمل في آيات الله في الآفاق والأنفس في السماء والأرض، للوصول إلى الإيمان بالله والتوحيد عن طريق الدليل والبرهان، وفي السياق نفسه يأتي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ

لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١٥]. أي حرية أوسع من حرية الإيمان بعد التأمل في خلق الله للسماوات والأرض؟

ويقرر القرآن الكريم حقيقة أخرى وقاعدة في التدين والإقبال على الدين بقوله: **﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ﴾**[١٦]، يقول الله في هذه الآية لا أريد منكم إيمانا فحسب، مهما كانت أسبابه ودواعيه، بل أريد منكم إيمانا مبنيا على التفكير، و الإيمان والاعتقاد من شؤون القلب، وهل يمكن لأحد أن يملك مفاتيح القلب والسيطرة عليه؟ تخيلوا هل يمكن أن نقيد تلميذا ونهدده بالعصا والسوط، ليحل مسألة من مسائل الرياضيات؟ من البديهي أن حل مسألة رياضية يحتاج إلى العقل ولا تحل تحت ضغط الضرب على القدمين، فلا بد من إطلاق هذا التلميذ وإخراجه من عقاله لينطلق عقله من عقاله أيضا. والعقيدة الإسلامية هي في الواقع نتيجة فكرية مبنية على المعطيات التي تتوفر للإنسان فيقع أسير وضوح الفكرة فيستلسم لها ويؤمن بها.

ويروى في سبب نزول قوله تعالى: **﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ﴾**، أن عددا من أهل المدينة كانوا يولون اليهود في المدينة تربية أبنائهم، لما بين اليهود وبين أهل المدينة من تفاوت ثقافي، حيث كان عدد اليهود المتقنين للقراءة والكتابة أكبر من غيرهم، فتأثر هؤلاء الأطفال باليهود، وانبهر بعضهم بثقافة اليهود ومنهم من دخل في اليهودية. وبعد دخول الإسلام إلى المدينة وتشرفها بإقامة النبي ﷺ فيها، دخل أكثر العرب في الإسلام وآمنوا به، وقلة ضئيلة من اليهود أيضا، وبقى آخرون على اليهودية. وممن اختار البقاء على اليهودية من انتقلت إليه اليهودية بالمعاشرة والتعليم. ولما حدثت قضية بني النضير وخيانتهم لعهودهم مع النبي ﷺ وتقرر إجلاؤهم مع المدينة فضل المتأثرون بهم الانضمام إليهم، فأراد قوم هؤلاء المتهودين منعهم من

اللحاق بهم، وحاولوا إجبارهم على الإسلام، فعرضت القضية على النبي ﷺ فنزلت هذه الآية، وكانت قانونا يحدد طبيعة الإيمان الذي يريده الله تعالى، ويريده الإسلام[١٧].

وهذا ما كان عبر التاريخ، وهكذا دخلت الأمم في الإسلام. نعم حارب الإسلام النظم الفاسدة التي كانت سائدة في عصور الإسلام الأولى، ثم بعد أن زالت دول الظلم والاستبداد وبقي الناس فتحت أبواب الاختيار في وجوههم وعرض عليهم الإسلام من شاء آمن ومن لم يشأ بقي على دينه، ولم يجبر أحد من الناس على الدخول في الإسلام. هذا ما حصل في بلدنا في إيران أيضا، فلم يجبر الإيرانيون ولا غيرهم على الدخول في الإسلام. نعم لا يوجد دين من الأديان يحترم حرية الإنسان في التفكير لاختيار معتقده، كالإسلام. ولشدة وضوح هذا الأمر في الإسلام، فقد اعترف به المؤرخون الغربيون. وما دمنا أشرنا إلى إيران كمثال فلا بأس من الإشارة إلى أن الإيرانيين عندما دخل العرب إلى إيران فاتحين كان أكثر أهلها زرادشتيين وبقوا على ديانتهم، ولم يجبرهم العرب على التدين بالإسلام والدخول فيه. بل دخلوا في الإسلام باختيارهم بعد أن تحولت الدولة وانتقلت السلطة من العرب إلى الإيرانيين.

الهوامش

[1] سورة البقرة: الآية ٢٦٥.

[2] مقدمة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

[3] سورة النحل: الآية ٧٨.

[4] منها ما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» تفسير العياشي، ج٢، ص ٢٠٨. ومنها ما ورد عن الإمام علي (عليه السلام) أنه قال: «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة، والتفكر أن تمر على الخربة فتقول: يا دار أين بانوك؟ أين ساكنوك؟ ما لك لا تتكلمين؟»

[5] الشيخ علي النمازي، مستدرك سفينة البحار، ج ٨، ص ٢٨٨.

[6] الشيخ علي النمازي، مستدرك سفينة البحار، ج ٢، ص ١٦٧.

[7] سورة الأنبياء: الآيات ٥٧ إلى ٦٥.

[8] سورة طه: الآيات ٩٢ إلى ٩٨.

[9] سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

[10] سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

[11] لم أستطع العثور على مصدر القصة ولكنني وجدت بعض الروايات المشابهة: "عن أبي الطفيل قال ضحك رسول الله (ص) ثم قال: ألا تسألوني مم ضحكت قالوا يا رسول الله (ص) مم ضحكت: قال رأيت ناسا يساقون إلى الجنة في السلاسل، قالوا: يا رسول الله من هم قال: قوم يسبيهم المهاجرون فيدخلونهم الإسلام (المعرب).

[12] الرمد الحبيبي: أو التراخوما وهو مرض معد يحدث في القرنية والملتحمة من العين، وسمي الرمد الحبيبي لوجود ما يشبه الحبوب من ندبات على ملتحمة العين، وتقدر منظمة الصحة العالمية أن نحو ستة ملايين فرد في العالم يعانون من العمى نتيجة التراخوما وأكثر من مائة وخمسين مليون فرد في حاجة إلى العلاج من هذا المرض. من مقالة للدكتور عبد الله الصبي منشورة على الإنترنت على الرابط التالي:

_http://www.gulfkids.com/ar/index.php?action=show_res&r_id=50&topic id=696 (المعرب)

[١٣] المادة السادسة والعشرون من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

[١٤] سورة الذاريات: الآيتان ٢٠و ٢١.

[١٥] سورة آل عمران: الآيتان ١٩٠ و ١٩١.

[١٦] سورة البقرة: الآية ٢٦٥.

[١٧] في سبب نزول هذه الآية روايات عدة: منها المروية أعلاه وهي مروية عن سعيد بين جبير وعن الشعبي: أن رجالا من النضير أرضعت رجالا من الأوس، فلما أمرهم النبي (ص) بإجلائهم، قال أبناؤهم من الأوس لنذهبن معهم ولندينن دينهم، فمنعهم أهلوهم وأكرهوهم على الإسلام، ففيهم نزلت الآية. ويروى نزولها في رجل اسمه الحصين كان له ابنان نصرانيان، فقال للنبي (ص): ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك. (انظر: تفسير الميزان، الجزء ٢، ص ٣٤٧.)

القسم الثاني

الحرية المسؤولة بوصفها مدخلا للإيمان والرشد السياسي

الإسلام وحرية التفكير

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ﴾[1]، كنا نبحث في القسم السابق حول حرية المعتقد، بهدف التمييز بين المعنى المقبول لحرية الاعتقاد، والمعنى غير المقبول الذي يتنافى مع الكرامة الذاتية للكائن الإنساني. وانتهينا إلى أن عقيدة الإنسان بناء يقوم على أحد عمودين: أحدهما الفكر والوعي؛ حيث يقبل الإنسان على الدين عن إرادة واختيار صحيح، والعمود الآخر المحتمل لبناء العقيدة هو بناؤها على غير الوعي والاختيار الحر وذلك بأن يجبر الإنسان على عقيدة بشكل ناعم، جبرا غير منظور من خلال التقليد وتحولٍ عقيدة الآباء والأجداد عبر التربية إلى خيار لا بد منه. وفي الحالة الثانية تتحول العقيدة إلى قيد يسد على الإنسان أبواب التفكير الحر.

نعم، مثل هذه العقائد مجموعة من السلاسل والقيود، وليس في الأمر غرابة أن يكون للإنسان قيود تكبل فكره، كما تكبل الأغلال قدميه، وهذه الأغلال أقبح من أغلال الجسد وأخفى؛ لأنها قد تخفى على صاحبها بحكم العادة والعرف. ومثل هذا الفرد أو مثل هذه الأمة التي ارتضت عقيدة دون أن تفكر فيها قبل التدين بها، تحتاج إلى من يحررها كما يحتاج المقيد بالأغلال إلى من يطلق يديه وقدميه، أو على الأقل يحتاج إلى من يضع بين يديه أدوات فك نفسه. ولا أقصد استبدال قيده بقيد آخر، بل ما أقصده هو أن نساعده على التفكير في مناشئ عقيدته ودواعي تدينه بهذا الدين، ليعيد النظر في مسلماته التي لا تستند إلى دليل غير دليل العادة والتقليد. وهذه هي إحدى المهام التي كان يقوم بها الأنبياء؛ حيث كانت المهمة الأولى هي تخريب أسس العقيدة السابقة لفتح الطريق إلى العقيدة الجديدة، بعد

تحرر الفكر من أسر العقيدة السابقة.

ومن أمثلة ذلك بعض العادات التي لو خلي الإنسان ونفسه لما أقدم عليها، كعادة وأد البنات التي كان يمارسها المشركون في الجاهلية، كما كانوا يمارسون أي عادة من عادات حياتهم اليومية. ويذكر بعض المؤرخين والمحدثين أن أحد هؤلاء ولدت له بنت فأراد أن ينفذ حكم الجاهلية فيها، فأخفتها أمها لتكبر بعيدا عن أبيها، ثم بعد أن كبرت عرضتها عليه ظنا منها أنه يرق لها، فما كان منه إلا الإصرار على تلافي ما فاته. وهذا الرجل نفسه يسجل له المؤرخون شدة تعجبه وإعجابه بخلق النبي ﷺ وطريقة تعامله مع البنات وعطفه عليهن، بعد أن هداه الله إلى الإسلام.

الحرية والإكراه ومتعلقاتهما

وعلى أي حال لا يمكن المطالبة بالحرية أو الإجبار مع غض النظر عن موضوع الحرية أو الإجبار، فإن بعض الأفعال لا يمكن الإجبار عليها؛ ولذلك لا يمكن الحديث عن الحرية أو عدم الحرية فيها. مثلا: هل يمكن الإجبار على المحبة؟ بالطبع لا! فإنه لو اجتمع أهل الأرض جميعا ليجبروا شخصا على حب شخص أو شيء، لما أمكن أن يحب. وهل يتحقق الحب بالإكراه؟! والعكس صحيح أيضا فإن من يحب شخصا أو شيئا ويعشقه لا يمكن أن نجعله مبغضا له.

والإسلام بل كل دين ومعتقَد لا يمكن الإجبار عليه. وأقصى ما يمكن فعله هو الإجبار على التظاهر بالإيمان، والقيام ببعض أفعال المسلمين، ولكن هذا الالتزام الظاهري يبقى ما بقي الإكراه ويزول بزواله. ومن هنا، كان جواب القرآن قاطعا عندما ادعى جماعة من الأعراب أنهم آمنوا بالله ورسوله فما كان جوابهم إلا قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[٢]. إذاً، أقصى ما يسمح القرآن لهؤلا ء بادعائه هو الإسلام والتسليم. وأما الإيمان، فهو شرف لم يكونوا قد نالوه

حتى ذلك الوقت، وما يريده الله ورسوله هو الإيمان. فالإسلام مرهون بالتلفظ بالشهادتين ويكتفى من الإنسان أن يدعيه، وهذا هو الإسلام الاجتماعي الذي يكفي للدخول في جماعة المسلمين والتعامل معه معاملة المسلمين، ويرتبوا أحكام المسلمين عليه من زواج وإرث وما شابه من الأحكام الخاصة بالمسلمين، وهذا شيء والإيمان والاعتقاد القلبي شيء آخر، وهذا هو ما تقرره القاعدة القرآنية التي تنفي الإكراه في الدين بعد بيان الرشد من الغي. وليس بعيدا عن هذا المناخ تصنف القاعدة الأخرى في الدعوة إلى الإسلام حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٣] ومن أبرز مصاديق الموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن تقديم الفكرة مع دليلها ثم بعد ذلك لا يكون النبي ﷺ مسؤولا عن إباء بعض الناس عن الحق: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[٤] فوظيفة النبي ﷺ بحسب هذه الآية هي الدعوة والإبلاغ، وليس جر الناس إلى الإيمان مكرهين؛ وأهم أسباب ذلك كما تقدم أن بعض الموضوعات هي بطبيعتها لا تقبل الإكراه والإجبار، وبالتالي ليست الحرية فيها منَّة من أحد.

الإجبار والأخلاق

وهناك أمور أخرى يمكن الإجبار عليها، ولكن الإجبار عليها ليس كمالا للإنسان، أو فقل: إن بعض الأمور كمالها وترتب الكمال عليها مرهون بالقيام بها تطوعا ودون إكراه. مثلا: في القضايا والمسائل الأخلاقية يجب على كل إنسان أن يكون أمينا، فلا يخون الناس بعضهم بعضا، وكذلك الصدق والعدل وما شابه من المفاهيم الأخلاقية والفضائل التي يجب على كل إنسان أن يتحلى بها. جميع هذه الصفات والفضائل حسنها يكمن في أن تتحول إلى صفات راسخة أي إلى خلق للإنسان، ولو ترتبت بعض العقوبات على مخالفة بعض هذه الفضائل، فليس ذلك من باب الأخلاق؛ أي حتى لو قطعنا يد السارق وامتنع عن السرقة خوفا من قطع يده الأخرى مثلا، قلا

تتحقق أغراض الأخلاق بهذا الأمر.

الأخلاق والتربية الأخلاقية تقتضي أن يكون الإنسان أمينا وصادقا، لا أن لا يخون ولا يكذب فحسب، وشتان بين الصادق وبين من لا يكذب، فربما وجدت من لا يكذب لعدم وجود من يكذب عليه. وخلاصة القول في هذا المثال هي أن المقصد الأخلاقي لا يتحقق إلا عندما تتحول هذه الفضائل إلى طبع ثان يحكم تصرف الإنسان ويضبط سلوكه، لا أن يلتزم خوفا من القانون والعقوبة.

النضج الفكري والإكراه

ومن الأمور التي تطلب فيها الحرية على الرغم من إمكان الإجبار فيها، النضج الفكري والوعي؛ إذ لا يمكن الوصول إلى مرحلة النضج والوعي مع الإجبار والإكراه، فالأب الحريص على مستقبل أبنائه وتربيتهم لا يصل بهم إلى حيث يريد لهم، من خلال المبالغة في متابعة شؤونهم ورعاية أمورهم في كل شاردة وواردة، بل لا بد من الاعتدال في مراقبة الولد ومتابعة شؤونه. فالنصيحة والتربية والاهتمام والرعاية هذه الأمور جميعا من حقوق الابن على الأب، ولكن في الوقت عينه لا بد من إطلاق الولد ليجرب الأمور بنفسه ويستطيع اتخاذ القرارات المناسبة في أوقاتها حتى لو أخطأ أحيانا، فإن خطأه في بعض الأحيان وإصابته الحق في موارد أخرى أولى من تصويبات الأب المتكررة له في جميع شؤونه وأحواله. وقد قرأت في بعض الكتب حول الحيوانات عن كيفية تعليم الطيور أفراخها على الطيران، فبعضها تنتظر بأفراخها حتى ينبت لها الريش فتبدأ بنقرها بمنقارها حتى تجبرها على تحريك جوانحها وشيئا فشيئا، وبعد مرات من السقوط والنهوض تتعلم الطيران.

في مجال الاجتماع الإنساني تصدق القاعدة نفسها فمن واجب الأمة على قياداتها أن تتولى هدايتها، ولو أهملت القيادة هذا الواجب لضلّت الأمة. ولكن في المقابل لو أرادت هذه القيادة أن تسلب حرية

الاختيار من الأمة خوفا عليها واعتقادا منها بأن الأمة ليست مؤهلة لممارسة حريتها، حتى لو كان هذا عن حسن نية وحتى لو كان تقييم هذه القيادة للأمة صحيحا، فإن هذه الأمة سوف تبقى إلى الأبد غير مؤهلة ينقصها النضج والرشد السياسي والاجتماعي. في الانتخابات للهيئات والمجالس السياسة البرلمان أو غيره، لنفرض أن الأمة ليست مؤهلة لاختيار الأصلح، وأراد أحدهم أن يمارس هذا الدور بحسن نية وكان تشخيصه للأصلح دقيقا، لا يصح منه الانتخاب نيابة عن الأمة أو إجبار الأمة على انتخاب من يراه هو الأصلح. والطريقة الأصوب بل الطريقة الصائبة هو أن يدعوَ من يريد الترشح لمنصب ما الناسَ إلى نفسه ويبقى الناس في حيرة إلى مدة ليقارنوا بين المرشحين ويختاروا الأصلح دون إجبار من أحد، ولو اخترنا الطريقة الأولى حتى لو كان اختيار الأكثر وعيا ونضجا هو الصائب، فإن مثل هذه الأمة غير الرشيدة سوف تبقى غير رشيدة إلى الأبد وسوف تبقى محتاجة إلى من يأخذ بيدها ويختار لها من يمثلها.

الحراك الاجتماعي والسياسي للأمة أشبه ما يكون بالسباحة، فهل يمكن أن يتعلم الإنسان السباحة على اليابسة وننتظر حتى يتعلم لينزل إلى الماء؟ لا يراهنَّن أحد على حصول هذا الأمر، بل لا بد من تعلم السباحة في الماء وابتلاع الماء مرات ومرات والخوف من الغرق حتى نتعلم وفق قانون التجربة والخطأ. وهذا هو معنى الحرية المطلوبة في مثل هذه المجالات.

إذا، لا بد من خوض غمار التجربة للوصول إلى النضج الفكري، ولا يمكن الوصول إلى النضج من خلال سلب الحرية خشية وقوع الأمة في الخطأ واختيارها ما لا يتوافق مع مصلحتها، في المجال الديني العقدي أيضا كذلك لا يصح تخويف الناس من التفكير في القضايا الدينية وتحذيرهم منه خشية أن يقودهم الفكر إلى اعتناق فكرة أو قبول مفهوم لا يقبله الدين. وهذا هو ما يؤكده الحديث النبوي المعروف: **«وضع عن أمتي تسع خصال: الخطأ، والنسيان، وما لا يعلمون، وما لا**

يطيقون، وما اضطرّوا إليه، وما استكرهوا عليه، والطيرة، والوسوسة في التفكّر في الخلق، والحسد مالم يظهر بلسان أويد»[٥]، وفي رواية أخرى: **«...والتفكر في الوسوسة في الخلق مالم ينطق بشفة»**[٦].

وينقل المحدثون أن بعض الصحابة قالوا للنبي ﷺ: **«يا رسول الله. إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان»**[٧]. إذا المشكلة والشر ليست هي الشك، بل الشك هو أول الطريق نحو الإيمان، فلا خوف من الشك ولا ضير من الإعلان عنه والتصريح به، شرط أن لا يكون مقرا دائما، عندها يكون الشك محض الإيمان.

نعم هذه هي الحرية التي يقبلها الإسلام لأتباعه، هي الحرية التي تكسر كل أغلال التقليد والاتباع الأعمى للآباء والأجداد، هي الحرية التي لا تقبل إلا الاجتهاد في أصول الدين والاعتقاد بها بعد وعيها والإيمان بها إيمانا مبنيا على الدليل. مثل هذا الدين كيف يمكن أن يتهم أو يكون من أنصار الإكراه على الإيمان والتدين؟

هذا في مقام الاعتقاد، وأما في مقام العمل فماذا فعل الإسلام غير أنه واجه الخرافات والأفكار التي لا يقبلها العقل، والتي ليست هي سوى قيد وغل يأسر العقل الإنساني ويحجزه عن التفكير الحر المجرد من الغرض، والسيف استخدم في الدعوة ولا ننكر ذلك، ولكن المهم هو كيفية استخدام السيف، لا أصل استخدامه فلا تنتشر دعوة من دون سيف يذود عن حياض معتنقيها ويدافع عنهم في وجه من خرجوا عن عقيدته. نعم استخدم السيف لمواجهة الأنظمة الفاسدة التي كانت تسد طريق الإيمان في وجوه الأمم، وبعد زوال هذه الحواجز تُرِك الخيار للناس من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وهذا ما حصل عبر التاريخ؛ الحروب كانت حروبا مع الأنظمة التي تحاول سلب الناس حريتهم، لا مع الأمم التواقة إلى الحرية وصوت العقل والمنطق. وهذا المنهج في الدعوة إلى الإسلام، كان السبب الأهم

في إقبال الناس على الدين والدخول فيه أفواجا. وهذه واحدة من الصفحات المشرقة في تاريخ الإسلام والدعوة الإسلامية، في مقابل كثير من الأمم والأديان والمذاهب ذات التاريخ المظلم في هذا المجال. وإنني أدعوكم إلى مطالعة التاريخ للمقارنة وأخذ العبر.

لاحظوا أننا نُتَّهم بنشر الإسلام بواسطة السيف ولكن قارنوا تاريخنا بما يقوله المؤرخون الأوروبيون عن تاريخ الكنيسة، ومن ذلك كتاب تاريخ القرون الوسطى الذي كتبه آلبير ماليه، وقارنوا بين محاكم التفتيش في أوروبا وبين ما فعله المسلمون عندما دخلوا إلى إيران فاتحين وبين ما كان يفعله الزرادشتيون عندما كان لرجال الدين الزرادشتي نفوذ في السلطة. وكذلك أدعوكم إلى قراءة المجلد الحادي عشر من كتاب قصة الحضارة لول ديورانت، المخصص لتاريخ الإسلام، وفي السياق نفسه أدعوكم إلى قراءة كتاب محمد خاتم الأنبياء، حيث يحتوي على مجموعة من المقالات منها مقالة لأحد الأساتذة الكبار بعنوان «كارنامه إسلام» أي إنجازات الإسلام أو جدول علاماته، وعلى الرغم من اختصار هذه المقالة وعدم توسع الباحث في عرض أفكاره، إلا أنه يوضح فكرة مهمة حاصلها أن انتشار الحضارة الإسلامية وسرعة هذا الانتشار تعود إلى أمرين أساسين هما:

١- الحماس الإسلامي للحرية وتأكيده على الفكر والمعرفة والعلم والتعلم.

٢- والأمر الثاني هو الحرية والتسامح الذي أبداه الإسلام والمسلمون تجاه الأمم.

وهذا الأمر الأخير من النقاط المحيرة في كيفية انتشار الإسلام، والسؤال الذي يواجه الباحث هو: كيف استطاع الإسلام أن يضم خلال فترة وجيزة مجموعة من الأمم والشعوب إلى ساحته على الرغم من اختلاف مشاربها وأذواقها؟ وقد انتهى عدد من الباحثين في هذه القضية إلى أن أهم نقاط الجذب في الإسلام، هي أن المسلمين لم

يمارسوا سلوكا استعماريا مع الأمم التي دخلوا بلادها، بل كانوا يبدون أعلى الدرجات التسامح والاحترام مع هذه الأمم، إلى أن ذابت في الإسلام واختارته دينا لها. ونعثر لمصاديق لهذه السيرة في حركة الدعوة الإسلامية بدء من المدينة مع النبي ﷺ إلى آخر بقعة وصل إليها الإسلام.

نماذج من الحرية الإسلامية

وأمثلة الحرية الفكرية في تاريخ الإسلام كثيرة ومنها إصرار الإمام علي عليه السلام على دعوة الناس إلى طرح أسئلتهم عليه قبل موته وفقدانهم نعمة الحصول على أجوبة، ويروي المحدثون أنه كرر هذه الدعوة مرات على مسامع المسلمين؛ حيث يروى عنه قوله: «**سلوني قبل أن تفقدوني**». فقام إليه أحدهم مرة وقال بجرأة ووقاحة: «**أيها المدعي ما لا يعلم، والمقلد ما لا يفهم، أنا السائل فأجب**». فنظر إليه المسلمون ووجدوا أنه لا يشبههم وتبين لهم أنه من «مهودة العرب»؛ أي من العرب المتحولين إلى اليهودية، وثارت ثائرة أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام لوقاحة الرجل وجرأته، فقال أمير المؤمنين عليه السلام لهم: «**إن الطيش لا يقوم به حجج الله ولا تظهر به براهين الله**»، ثم توجه إلى الرجل وقال: «**إسأل بكل لسانك وما في جوانحك**» فسأل ما بدا له. ومن المؤسف أن هذه الأسئلة وأجوبتها لم تنقل ولكن ينقل في خاتمة القصة أن الرجل أذعن لحجج الإمام عليه السلام التي أسرته بقوتها فأظهر الشهادتين[٨].

لا وجود لسياسة كم الأفواه في الإسلام، لا في زمان النبي ولا في زمان الأئمة من بعده فهذا أمير المؤمنين عليه السلام كما يذكر المؤرخون كان يكثر التردد إلى المسجد والمكث فيه، وأحد الأغراض التي كان يستهدفها هي الحضور الدائم للدفاع عن الإسلام وتوضيح مبادئه لكل قادم يأتي من بلاد بعيدة ليتعرف على الإسلام وكان يوصي خواص أصحابه بهذا الأمر، كما يوصيهم بالرفق بالسائل وعدم تعنيفه مهما كانت درجة حساسية أسئلته ومقاربتها للصميم من

العقيدة الدينية، فلا مناطق محرمة على السؤال في الإسلام.

ولم تكن هذه سيرة الحكومات الصالحة في الإسلام فحسب، بل حتى الدولة الأموية على الرغم من سوء سمعتها، وعلى الرغم من الظلم الذي مارسه حكام بني أمية، عندما نقارنها بالدول والأنظمة المعاصرة لها خارج حدود الإسلام نجدها أفضل بدرجات. والعباسيون كذلك أيضاً، شرط أن لا يشعر هؤلاء بالخطر على الشأن السياسي.

ويروي المحدثون والمؤرخون عن المفضل بن عمر الجعفي، صاحب الكتاب المشهور المعروف بتوحيد المفضل، قال: «**كنت ذات بعد العصر جالسا في الروضة بين القبر والمنبر، وأنا مفكر في ما خص الله تعالى به سيدنا محمدا ﷺ من الشرف والفضائل، وما منحه وأعطاه وشرفه وحباه، مما يعرفه الجمهور من الأمة وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته، وخطير مرتبته، فإني لكذلك إذ أقبل ابن أبي العوجاء، فجلس بحيث أسمع كلامه فلما استقر به المجلس، إذ من أصحابه من قد جاء فجلس إليه، فتكلم ابن أبي العوجاء، فقال: لقد بلغ صاحب هذا القبر العز بكماله وحاز الشرف بجميع خصاله، ونال الحظوة في كل أحواله، فقال: له صاحبه إنه كان فيلسوفا ادعى المرتبة العظمى، والمنزلة الكبرى، وأتى على ذلك بمعجزات بهرت العقول، وضلت فيها الأحلام، وغاصت الألباب على طلب علمها في بحار الفكر، فرجعت خاسئات، وهي حسر، فلما استجاب لدعوته العقلاء والفصحاء والخطباء، دخل الناس في دينه أفواجا فقرن اسمه باسم ناموسه، فصار يهتف به على رؤوس الصوامع، في جميع البلدان والمواضع التي انتهت إليها دعوته وعلتها كلمته، وظهرت فيها حجته برا وبحرا سهلا وجبلا، في كل يوم وليلة خمس مرات مرددا في الأذان والإقامة، ليتجدد في كل ساعة ذكره، ولئلا يخمل أمره. فقال ابن أبي العوجاء: دع ذكر محمد ﷺ فقد تحير فيه عقلي، وضل في أمره فكري....«ثم شرع في التشكيك في التوحيد وأن الكون خلق من دون مدبر له.» يقول المفضل: فلم أملك نفسي غضبا وغيظا وحنقا، فقلت له: يا عدو الله ألحدت في دين الله، وأنكرت الباري**

جل قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم.... فقال ابن أبي العوجاء: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلمناك، فإن ثبتت لك حجة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق، فما هكذا تخاطبنا، ولا بمثل دليلك تجادل فينا، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدى في جوابنا، وإنه الحليم الرزين، العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا، ويصغي إلينا ويتعرف حجتنا، حتى إذا استفرغ ما عندنا، وظننا قطعناه، دحض حجتنا بكلام يسير وخطاب قصير، يلزمنا الحجة، ويقطع العذر، ولا يستطيع لجوابه ردا، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه.» فحزن المفضل لما سمع وقصد الإمام الصادق عليه السلام فأخبره بما سمع فأملى عليه الإمام ما جمعه فكان كتاب توحيد المفضل.[1]

وابن أبي العوجاء هذا له محاجة مع الإمام الصادق عليه السلام ويبدو أنه كان وابن المقفع وعددا من أصحابهما في موسم الحج؛ فقال أحدهما للآخر: انظر إلى هؤلاء الناس كيف يدوسون هذا البيدر ويعبدون هذا البيت المعمور بالطوب، وما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانية إلى ذلك الرجل يعني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام. فقال ابن أبي العوجاء: وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء؟ قال ابن المقفع: لأني رأيت عنده ما لم أر عندهم، فقال ابن أبي العوجاء: لا بد من اختبار ما قلت فيه منه، فقال له ابن المقفع : لا تفعل فاني أخاف ان يفسد عليك ما في يدك، فقال: ليس ذا رأيك، ولكنك تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك إياه المحل الذي وصفت، فقال ابن المقفع: أما إذا توهمت على هذا فقم إليه وتحفظ ما استطعت من الزلل ولا تثن عنانك إلى استرسال يسلمك إلى عقال...، قال فقام ابن أبي العوجاء، فقال: يا أبا عبد الله إن المجالس أمانات ولا بد لكل من كان به سعال أن يسعل، فتأذن لي في السؤال؟

فقال الإمام الصادق عليه السلام : سل إن شئت. فقال ابن أبي العوجاء: إلى

كم تدوسون هذا البيدر؟ وتلوذون بهذا الحجر؟ وتعبدون هذا البيت المعمور بالطوب والمدر؟ وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟ من فكر هذا وقدر علم أنه فعل غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه وأبوك أسه ونظامه. فقال له الصادق عليه السلام: إن من أضله الله وأعمى قلبه استوخم الحق ولم يستعذبه، وصار الشيطان وليه وربه، يورده الهلكة موارد ولا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وجعله قبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه...«ثم بدأ الإمام عليه السلام يطرح عليه السؤال بعد السؤال وهو يحار في جوابه إلى أن عاد إلى جماعته» فقال: يا ابن المقفع ما هذا ببشر وإن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهرا، ويتروح إذا شاء باطنا فهو هذا فقال له: وكيف ذاك ؟ قال: جلست إليه فلما لم يبق عنده غيري ابتدأني، فقال: إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء وهو على ما يقولون يعني أهل الطواف، فقد سلموا وعطبتم. وإن يكن الأمر كما تقولون وليس كما يقولون فقد استويتم وهم، فقلت له: يرحمك الله وأي شئ تقول؟ وأي شئ يقولون ما قولي وقولهم إلا واحد، فقال: كيف يكون قولك وقولهم واحدا، وهم يقولون: إن لهم معادا وثوابا وعقابا يدينون بأن للسماء إلها وأنها عمران وأنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد، قال: فاغتنمتها منه، فقلت له: ما منعه إن كان الأمر كما تقول أن يظهر لخلقه ويدعوهم إلى عبادته حتى لا يختلف منهم اثنان؟ ولمَ احتجب عنهم وأرسل إليهم الرسل، ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلَى الإيمان به؟ فقال لي: ويلك وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك؟ نشأك ولم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوتك، وسقمك بعد صحتك، وصحتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد حزنك، وحبك بعد بغضك، وبغضك بعد حبك، وعزمك بعد إبائك، وإباؤك بعد عزمك، وشهوتك بعد كراهتك، وكراهتك بعد شهوتك، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجاؤك بعد يأسك، ويأسك بعد رجائك ، وخاطرك بما لم يكن في وهمك وعزوب ما أنت

معتقده من ذهنك، وما زال يعد علي قدرته التي هي في نفسي التي لا أدفعها حتى ظننت أنه سيظهر في ما بيني وبينه»[١٠].

وتشتمل بعض كتب الحديث عندنا على مجموعة من الاحتجاجات والجدالات التي كانت تدور بين الأئمة عليهم السلام وبين أهل الأديان على اختلاف نحلهم ومذاهبهم، من اليهود والنصارى، والمجوس والدهريين، بل وحتى الوثنيين. فكان هؤلاء جميعا يطرحون أسئلتهم دون خوف ولا وجل، ودون اعتراض رسمي من أحد ويسمعون الجواب، ولم يُقَل لهم لا يحق لكم طرح الأسئلة الدينية في ظل الدولة الإسلامية القوية. وقد كانت الدولة الإسلامية في أوج قوتها، ولو شاء الحكام لمنعوا الناس من البحث وطرح الأفكار المخالفة للأفكار الإسلامية. وكل ذلك لم يحصل، فهارون الرشيد فتح باب البحث والنقاش العلمي بين الفرق الكلامية، حتى تلك الفرق التي كانت تعد معادية لدولته أي متمكلمي الشيعة. وكانت بعض مجالس البحث والجدل تعقد في بلاطه وبحضوره أحيانا.

وكذلك المأمون على الرغم من تصنيفه بين الخلفاء المتشددين مذهبيا، وعلى الرغم من موقفه السلبي من التشيع والشيعة كما ينقل المؤرخون، ومن الجرائم التي يتهم بها قتله للإمام الرضا عليه السلام على ما في بعض الروايات. ولكنه في المسائل الدينية التي لا ربط مباشر لها بالسياسة والسلطة كان يأذن بالبحث وطرح الأفكار المخالفة للمذهب الذي يؤمن به. وعلى أي حال والحق يقال، إن هذا الرجل على الرغم من مواقفه السلبية من التشيع وموقفنا منه ومن سيرته التي فيها موارد من الظلم للشيعة والتشيع، إلا أن الحق لا بد من أن يقال، ولا بد من الاعتراف له بفتح باب البحث والمناظرة والسماح بحد لا بأس به من الحرية الدينية والفكرية.

نعم أين يمكن أن يوجد لهذا الدين نظير؟ وما سبب هذا الموقف من حرية التفكير في القضايا الدينية مهما كانت درجتها

من القداسة؟ السبب الأساس برأيي هو أن الإسلام يعتمد على المنطق والعقل؛ ولذلك لا يخوف الناس من البحث والتفكير في الله، بل أكثر من ذلك الإسلام يدعو الناس إلى التفكير، ولا يقيد حريتهم في التفكير إلا بحدود المنطق، وحدود قدرة العقل الإنساني.

مثلا: عندما يحاول أحدهم أن يتعرف على حقيقة الله! كل ما يمكن أن يقال له: إن حدود قدراتك العقلية لا تسمح لك بذلك، فهل استطعت أن تعرف حقيقة النور المادي، أو غيره من الظواهر المادية المعقدة، حتى تحاول التعرف على حقيقة الله تعالى؟ وهذا حد منطقي لا تشريعي، فإن العلم على الرغم من كل التقدم الذي حققه، نجده يتجنب البحث حول حقائق الأشياء بشكل مباشر، ويستبدل ذلك بالبحث حول بعض الظواهر الملابسة لها، ولكن لا ينبغي لنا أن ننكر وجود الأشياء التي لا نستطيع إدراك كنهها ومعرفة حقيقتها، فهل ننكر وجود الطاقة إذا كنا لا ندرك حقيقتها؟ أو ننكر وجود النور إذا عجزنا عن فهم حقيقته؟ والكلام نفسه يقال على المادة وغيرها من الأشياء التي ليس لها حقيقة واضحة في الأبحاث العلمية، وإنما تعرف بآثارها ولوازمها.

نموذج من تجربة شخصية

وعلى المستوى الشخصي، فإنني ذكرت في كثير من كتاباتي وكررت ذلك مرارا: إنني لا أخشى من ظهور الشكاكين بيننا، بل ربما يسرني وجود مثل هؤلاء؛ وذلك لأن وجود مثل هؤلاء في المجتمع الإسلامي وعلى الرغم من بعض المشاكل التي يثيرونها، إلا أنهم مع ذلك يقدمون للفكر الإسلامي خدمة جلى حيث يحركون ساحة البحث العلمي، ما يؤدي إلى مزيد من الضياء في وجه الإسلام والإشراق في صورته.

والخوف كل الخوف من ظهور هؤلاء في وقت لا يكون في المسلمين من يستطيع الدفاع عن الإسلام ومواجهة منطق هؤلاء بمنطق أقوى. وأما إذا كان حماة الإسلام والمدافعون عن ثغور العقيدة أحياء فعلا وقولا، فإن كل محاولة للتشكيك في العقيدة الإسلامية سوف تؤدي إلى نتيجة معاكسة لأغراض أصحابها، وتُظهِر قوة المنطق الإسلامي بدل أن تضعفه. والنماذج كثيرة في التاريخ القريب والبعيد، فكسروي عندما كتب ما كتب ضد الشيعة والتشيع، بل وأحيانا ضد الإسلام، وكذلك عندما بدأ حزب «توده» ينشر أدبياته في المجتمع الإيراني، وكذلك عندما بدأ دعاة القومية الإيرانية بمهاجمة الإسلام لاعتبارات قومية، ماذا حدث هل خر الإسلام صريعا أمام منطقهم؟ لا، ما حصل هو أن هذه الأفكار بدل أن تضر بالإسلام والفكر الإسلامي، كانت في واقع الأمر خدمة للإسلام من حيث لا يشعر أصحابها. فكسروي عندما نشر كتبه، فتح بذلك الباب أمام الكثير من الأبحاث التي كانت مطمورة في بطون الكتب أو في صدور العلماء، فأعاد إحياءها بعد أن كان مسكوتا عنها لفترة طويلة، مثلا لم يكن يعرف الكثير من الناس شيئا عن مفاهيم عقدية، مثل: الإمامة، التقية، البداء، وغيرها. فدعا اعتراض كسروي على هذه الأمور العلماء إلى القيام بدورهم وتوضيح بعض الشبهات وحذف بعض الخرافات والأفكار التي كانت تحسب على الدين وليست منه في شيء. وهذا ما نتج عن نشر حزب «تودة» لأفكاره؛ حيث أدى ذلك إلى توضيح فلسفة الإسلام ورؤاه في الاقتصاد والاجتماع ونظرته إلى الإنسان.

نعم إن الدين الحي لا ينبغي أن يخاف من الأفكار المخالفة له. الدين يُخشى عليه عندما يكون أتباعه أمواتا أو شبه أموات لا يرف لهم جفن ولا يحركون ساكنا، وقد كان المسلمون في بعض الأحيان

هكذا، مثلا في أوائل عصر الحركة الدستورية (المشروطة)[11]؛ حيث قال بعض الكتاب: إن النظام الجزائي الإسلامي لم يعد يصلح لهذا العصر، وقتها لم نجد من يتصدى لهذه الدعوى بقوة، ما دعا بعض الجهال أو المغرضين إلى تقبل القوانين الإسلامية وإلقائها جانبا، واستبدالها بالقوانين المترجمة من الغرب. ومن هنا، تسربت القوانين الغربية إلى النظام القضائي الإيراني، «وربما حصل مثل هذا في غير إيران من المجتمعات الإسلامية».

هذا هو الإسلام الذي نؤمن به، إنه الإسلام المبني في ميدان العقيدة على الفكر والمنطق، وفي ميدان الفقه على العقل والمصالح، وقد حسب لكل شيء حسابه، وفتح باب حرية التفكير في كل الأمور التي للعقل الإنساني فيها مجال ولم يحرم أحدا من الحرية لا مسلما ولا غير مسلم، الأمر الذي لا نجده في أي دين من الأديان. وهذا من المفاخر التي تولد فينا الإعجاب بديننا وبعقيدتنا.

اللهم وفقنا جميعا لإدراك حقيقة الإسلام وفهمه.

اللهم هبنا الغيرة والحياة والحركة.

اللهم مُنَّ علينا بخير الدنيا والآخرة، وأخرج قطن الغفلة من آذاننا، وارحم أمواتنا جميعا واغفر لهم، رحم الله من قرأ الفاتحة مع الصلوات.

الهوامش

[1] سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

[2] سورة الحجرات: الآية ١٤.

[3] سورة النحل: الآية ١٢٥.

[4] سورة الغاشية: الآيتان ٢١ و ٢٢.

[5] محمد بن الحسن الحر العاملي، **وسائل الشيعة** إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١١، الباب٥٦ من أبواب جهاد النفس، ح٢٣.

[6] الشيخ الصدوق، **الخصال**، باب التسعة، الحديث ٩، ص ٤١٧.

[7] ورد في صحيح مسلم الحديث ١٣٢.

[8] بحار الأنوار، الجزء ٥٤، ص ٢٣١؛ إرشاد القلوب، الجزء ٢، ٣٧٦.

[9] المفضل بن عمر الجعفي، **توحيد المفضل**، ص ٤.

[10] الشيخ الصدوق، التوحيد، تحقيق هاشم الحسيني، قم، منشورات جامعة المدرسين، ص ١٢٧.

[11] حركة سياسية قام بها الشعب الإيراني لمطالبة الشاه بالالتزام بالدستور وإقراره النظام البرلماني، وقد دعم العلماء هذه الحركة ولكن القيادات العلمانية لهذه الحركة انحرفوا بها عن مسيرها الأصلي وحولوها إلى المطالبة بإلغاء القوانين الإسلامية من الدستور فانتهت بالفشل بعد أن عارضها العلماء. وقد أصدر الملك مظفر الدين شاه فرمان إقرار المشروطة عام ١٣٢٤ هـ..

القسم الثالث

الحفاظ على الهوية بوصفه قيدا للحرية

قبل الحديث عن الحرية لا بد من التساؤل حول هذا المفهوم أولاً عن حقيقته وطبيعته؟ وعندما نعترف للإنسان بالحق في الحرية، ماذا نقصد بهذا الحق وأي حق هو؟

بادئ ذي بدء لا بد من التمييز بين نوعين من الحرية: حرية إنسانية، وحرية حيوانية. ونقصد بالنوع الثاني حرية الشهوات والهوى والهوس. وإذا أردنا استخدام تعبير القدماء نقول: المراد من الحرية بالمعنى الثاني هو حرية القوة الغضبية، والقوة الشهوية.

ومن الواضح أن الذين يبحثون عن الحرية، ويطالبون بها بوصفها حقا من حقوق الإنسان لا يريدون هذا المعنى، ولا يطالبون به. بل ما يطلبونه هو ذلك المعنى المقدس الذي يمكن تسميته بالحرية الإنسانية؛ حيث إن الإنسان يتمتع بقابليات واستعدادات هي أرقى وأعلى من القابليات والاستعدادات الحيوانية. وهذه القابليات والاستعدادات، إما من العواطف والميول والرغبات، أو هي من جنس الإدراك والأفكار. وعلى أي حال، ليست الحرية إلا نتيجة هذه الاستعدادات الأعلى في الكائن الإنساني.

ولمزيد من الوضوح لا بد من التمييز بين مجالين من مجالات الحرية؛ لما يترتب على الخلط بين هذين المجالين من أخطاء ومغالطات. وهذان المجالان هما: حرية التفكير وحرية الاعتقاد. فحرية التفكير منشأها ذلك الاستعداد الإنساني الذي يقدر الكائن الإنساني على التفكير في ما يحيط به من أمور. ويمكن القول دون مبالغة إن تكامل الإنسان وتقدمه رهن بالحرية في هذا الميدان. وأما حرية الاعتقاد فهي أمر آخر، له خصائصه المتميزة؛ فمن المعلوم عدم كون كل عقيدة ناشئة عن تفكير صحيح منطقي. فرب عقيدة بنيت على مجموعة

من العادات والتقاليد والعصبيات. وهذا النوع من العقائد ليس فقط لا يقدم للإنسان خدمة، بل هو في الواقع مأزق يصل إليه الإنسان عن طريق الخطأ. وليس من الحرية في شيء، أن نسمح للإنسان بتبني عقيدة من هذا النوع، فإنها بدل أن تفتح للإنسان آفاقا رحبة نجدها تحبسه وتغلق في وجهه طرقا كان من الممكن فتحها وارتيادها. وليس هذه الحرية غير مفيدة فحسب بل هي مضرة بالإنسان الفرد وبالاجتماع الإنساني بسائر أفراده.

هل من المناسب أن نترك الإنسان الذي يعتقد بألوهية الصنم ويعبده لما اختاره وأراده؟ أو نقول: بما أنه وصل إلى هذا المحل بعد تفكير وتأمل عقلي، فعقيدة مثل هذا الشخص محترمة وعلينا أن نتركه وشأنه؟! أم أن الصواب والصحيح هو أن نفعل ما فعله إبراهيم الخليل عليه السلام مع عبدة الأصنام حيث حاول تحرير هؤلاء من عبادتهم للأصنام، بامتناعه عن مشاركة قومه عيدهم، واستغلاله فرصة غيابهم وإعماله في أصنامهم تكسيرا حتى إذا عادوا اتهم كبيرهم بذلك ليثبت لهم عجز الأصنام وعدم قدرتها على الدفاع عن نفسها. ليوقظهم بهذه الصدمة ا لإيجابية وما أجمل تعبير القرآن حيث يقول الله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

الذات الحقيقية الواقعية في الرؤية القرآنية هو العقل والفكر المحض والمنطق الصحيح. وبالتالي كان هؤلاء منفصلين عن ذواتهم وغرباء عنها، ورجعوا إلى أنفسهم بعد الصدمة التي أحدثها تصرف النبي إبراهيم فيهم. فكيف يمكن فهم وتفسير تصرف النبي إبراهيم عليه السلام، وفي أي خانة يصنف هل كان في تصرفه نقض لحرية العقيدة والفكر؟ إذا أخذنا المعنى الرائج والمتداول في هذا العصر لحرية التفكير فقد كان على النبي إبراهيم عليه السلام أن يقول: بما أن لهذه العقيدة من يتبناها ويؤمن بها فعليّ أن أحترمها وأتعايش معها!

هذا الأسلوب لا يقره الإسلام ولا يرتضيه، فهو في منظومة القيم

الإسلامية إغراء بالجهل، وليس خدمة للحرية الحقيقية في شيء. هذه السنَّة الإبراهيمية تكررت في تاريخ الإسلام مع النبي محمدﷺ حيث إنه عند فتح مكة لم يترك فيها صنما تحت شعار حرية المعتقد؛ لأنه رأى أن الإيمان بهذه الأصنام أسر الفكر الإنساني لسنوات طوال؛ ولذلك كان أول عمل قام به عند دخوله مكة هو تحطيم الأصنام وإخراجها من الكعبة، وبالتالي تحرير الناس من أسرها. ولنقارنْ بين هذا الفعل وبين ما فعلته ملكة بريطانيا عندما زارت الهند وزارت فيها أحد معابدها التي يدخلها المؤمنون حفاة، فلم تكتف بنزع حذائها عند الدخول إلى المعبد، بل نزعت حذاءها قبل الوصول إلى ساحة المعبد، ووقفت خاشعة بين يدي الأصنام والتماثيل الموضوعة هناك. في تفسير هذا التصرف يعتقد عدد من أهل البساطة والسذاجة أن هذا الفعل نابع من الاحترام والتقدير لمعتقدات هؤلاء الناس، ويغفل هؤلاء أو يتعامون عن أن هذا التصرف ما هو إلا خدعة من خدع المستعمر الذي يرى أن هذه الأصنام قيدت الشعب الهندي لسنوات، وكانت تمهيدا للاستعمار نفسه. وبالتالي ليس في هذا التصرف أي خدمة للحرية، بل هو خدمة للمستعمر ولأغراضه؛ لأن هذا الشعب عندما يتحرر من قيد الوثنية والأصنام، لن يبقى أي ضمان للقبول بقيود المستعمر نفسه.

ومن هذا النمط من الاحترام الهادف ما يذكره مؤرخونا، ويُنشَر في كتب التاريخ المدرسية أن قورش عندما فتح بابل أبقى على معابدها، ويسجل له هذا الفعل في ديوان المكارم، ولكن عندما ننظر إلى هذا الفعل بعين غير هذه العين يتغير تقييمنا. فإن صدور هذا التصرف عن مستعمر أمر عادي وطبيعي يخدم أغراضه، ولكن ما قيمة هذا الفعل في حساب الإنسانية؟ هل كان قورش مؤمنا بهذه المعابد ومعتقدا بفضلها وكرامتها؟ من البديهي أنه لم يكن كذلك ولكنه تبعا لحساب الأرباح والخسائر وجد أن هذه الأصنام هي قيد يضاف إلى قيد الاستعمار، فلماذا يستفز هؤلاء الناس؟ أليس من الأنسب لمصالحه أن يتركهم في جهلهم ويتفرغ لمقاصده التي من أجلها فتح بابل؟!

وعلى أي حال لنعد إلى ما كنا فيه ونؤكد على التمييز بين حرية التفكير، وبين انسداد أفق التفكير تحت عنوان الحرية. إن كل مذهب أو اتجاه يثق بمبانيه وأسسه الفكرية ومنطلقاته يناصر حرية التفكير والنقاش، والعكس صحيح أيضا فكل من لا ثقة له بمبادئه الفكرية ومنطلقاته يسد الآفاق على حرية التفكير. وهذا ما يحصل في البلاد الشيوعية؛ حيث لا يسمح بالتقاط الإذاعات الأجنبية، خوفا على أيديولوجيتهم الضعيفة. وأنا هنا أعلن ونحن في لحظات ولادة الجمهورية الإسلامية ومراحل تأسيسها الأولى، أن القانون الإسلامي لا يقيد حرية التفكير، ولا يفتح قنوات خاصة لتبادل الأفكار وتصفيتها قبل وصولها إلى الناس. لكل الناس حرية عرض أفكارهم والتعبير عنها دون قيود، وما يمنعه القانون هو حياكة المؤامرات والنفاق فقط.

وقد كان لي قبل أيام حوار مع بعض الشباب الشيوعيين فعرضوا علي شعارهم: «**وحدة، حرية، نضال**» وسألوا ما المشكلة في هذا الشعار؟ قلت: لا مشكلة في الشعار أبدا. قالوا: فلماذا لا يكون شعارا مشتركا لنا ولكم؟ قلت: عندما ترددون في شعاركم كلمة النضال، من هو العدو الذي تناضلونه؟ هل تضعون الدين في خانة من تناضلون؟ فلماذا تصاغ الشعارات بهذا الشكل المواربة؟ أليس في هذا الشعار استغفالا للمتدينين حتى يلتحقوا بكم، ثم يجدون أنفسهم فجأة في محل ما كانوا ليصلوا إليه لو وعوه من أول الأمر؟

أنا على العكس منكم أصرح بشعاراتي من أول الأمر أنا ضد الإمبريالية والشيوعية، فتعالوا يصارح بعضنا بعضا دون مواربة أو نفاق. فما هو موقفكم من الإمام الخميني؟ أنتم تقولون في مجالسكم الخاصة نحن مع هذا الرجل إلى المرحلة الفلانية وبعد ذلك ننقلب عليه. فإذا كنتم ترون أن قائدكم هو لينين فلماذا ترفعون صور الإمام الخميني في المظاهرات أليس في هذا الفعل خداعا للناس؟ ومن هنا، فإننا نميز بين حرية التفكير وحرية خداع الناس واستغفالهم. الفرق

الأساس بيننا وبينكم هو أننا نعلن ما نريد؛ فلنا تصورنا الخاص للدولة والاقتصاد وللكون، وندعو الناس إلى ما نؤمن به ونعتقد أنه الأفضل، من أعجبه فكرنا واقتنع به أيدنا وسار في ركبنا، ومن لم يرتض يختار فكرا آخر يعتنقه ويناضل من أجله. لهذا لا يمكن أن يكون هذا الشعار شعارا مشتركا بيننا، الحرية في شعاركم هي الحرية من الدين، والحرية التي ندعو إليها هي الحرية من كل القيود حتى قيد الشيوعية نفسه. ولأصدقائنا من الإيرانيين غير المسلمين أقول: أنتم أحرار في الاعتقاد بدينكم والتعبير عن أفكاركم بالشكل الذي تريدون لا يحق لأحد التعرض لكم، أو حجب هذا الحق عنكم، شرط أن يكون ما تظهرون هو عين واقعكم دون مواربة أو خداع.

تجربة كلية الإلهيات

وإذا أردت التحدث عن تجربتي الخاصة، فإنني في هذه الكلية وقبل سنوات كتبت إلى إدارة الكلية أن الكلية الوحيدة المؤهلة لدراسة الماركسية هي كلية الإلهيات، ولكن شرط أن لا يدرس أستاذ مسلم الفسلفة الماركسية، بل المطلوب هو أن يدرسها أستاذ غير مسلم، بل لا يؤمن بالله ويعرف الماركسية بشكل جيد، يأتي ويدرس ما يؤمن به ويعتقده، ثم نأتي نحن ونطرح منطقنا ولا نجبر أحدا على الإيمان بما نقول. ولا ينبغي أن تدار الأمور العلمية بروحية أن هذه الكلية هي كلية الإلهيات ولا يسمح للماركسية أن تدرس فيها. لا، هذا الأسلوب ليس أسلوبا علميا، المنطق العلمي يقضي بأن يدرس الماركسية من يؤمن بها، شرط أن لا يكذب ويراوغ ويحاول الاستدلال على صحة الماركسية بآية من القرآن الكريم. هذا الأسلوب هو نوع من الخداع والخيانة للعلم وللقرآن في آن معاً. وبكل أسف أقول: إن كثيرا من الكتابات التي تحمل اسم الإسلام تروج للماركسية باسم الإسلام والدين. وقد أشرت إلى هذا الأمر في مقدمة كتابي: «**الدوافع نحو المادية**» إلى أنني اطلعت على كرّاس في تفسير القرآن الكريم يخلو من اسم المؤلف أو المؤلفين، ولا أدري سبب تجهيل الكاتب، ولكن

أحتمل أن كاتبه أو كتّابه من المبهورين بالفكر الماركسي ويحاولون تعمية أسمائهم ليسهل عليهم ترويج أفكارهم دون تعقيد.

وتجد في نتاج هؤلاء العلمي العجائب، ففي تفسيرهم للقرآن الكثير من المفاهيم الماركسية التي حملت على القرآن على الرغم منه، مثلا يفسرون قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[٢]، بالثورة الماركسية! ويعتقدون أن الثورة الماركسية ذات مرحلتين مرحلة الغيب ومرحلة الشهادة، فما دام النظام الإمبريالي حاكما لا بد من العمل سرا، ومن بقاء الثورة في مرحلة الكتمان وبعد زوال النظام الإمبريالي تخرج الثورة إلى العلن وننتقل إلى مرحلة الشهادة، فنحن في إيران حتى العام الماضي كنا في مرحلة الغيب، وأما الآن وبعد زوال نظام الشاه فقد انتقلنا إلى مرحلة الشهادة!

واعتراضي الأساس على هذا الأسلوب في العمل، هو: ما المبرر للاستناد إلى القرآن؟ فليقل كل منا كلامه ويظهر معتقده بلغته ومصطلحاته الخاصة به. وليس للاعتراض على هذا الأمر أي ارتباط بمسألة حرية المعتقد، بل يرتبط هذا بالخداع واستخدام كتاب المسلمين المقدس للتدليس على الناس وهو اعتداء على حرية الآخرين، وهذا ما لا تسمح به قوانين الحرية وقيمها.

القرآن كتاب سماوي، هو الوحي متجسدا في كتاب، وهو معجزة ومن لا يعترف بهذا الأمر إما لم يفهمه، وإما يكذب وينكر ما هو واضح. وقد نقل القرآن عددا من المعجزات التي حصلت عبر التاريخ، ومن ذلك قصة أصحاب الفيل التي نقلها القرآن ونقلها المؤرخون أيضا، وحاصل القصة أن أبرهة ملك الحبشة (أثيوبيا) هاجم مكة بقصد هدم الكعبة وتخريبها، ويحكي لنا القرآن أن الله سلط عليه وعلى جيشه طيورا في مناقيرها حجارة من سجيل رمتها على جيش أبرهة فجعلتهم كعصف مأكول؛ أي كحقل قمح غزاه الجراد وقضى عليه. هذا الأمر قطعي بحسب القرآن ولكن تفاصيل الحادثة وكيفية

القضاء على الجيش هل كان بمرض الملاريا أو الكوليرا كما يدعي بعضهم أن كلمة «آبله» (الحصبة) في اللغة الفارسية تشترك مع كلمة أبابيل في الجذر.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى الفاصل الزمني بين نزول سورة الفيل وبين الحادثة نفسها هي أربعين سنة. ومن هنا، فإن كثيرا من الناس عاصروا الحادثة قبل نزول السورة، فلو كان ما ورد في القرآن غير صحيح، لاستغلوا الأمر واتهموا النبي بالكذب. وعلى أي حال كُتِبت بعض الكراسات في تفسير هذه السورة على النحو الآتي: كان في مكة مجموعة من الثوريين الذين يحاربون الاستعمار العالمي، وقد اكتشف الاستعمار خطتهم فهاجمهم ونوى القضاء عليهم، فانتفضوا مثل الطيور وواجهوه وقضوا على عسكره. ويدافع هذا المفسر عن تفسيره، قائلا: لسنا معنيين بالقول إن أحدا من المؤرخين لم يرو هذه الحادثة كما تقولون.

ومن الواضح أن هذا المنهج في التعامل مع القرآن غير صحيح. فعندما نرى أن بعض الناس يدققون إلى حد الوسوسة قبل اتخاذ موقف من تفسير آية من الآيات -وأنا لا أوافق على المبالغة في هذه الوسوسة- فإن هؤلاء يدققون كي لا يقوِّلوا القرآن ما لا يقول ويتصرفون وفق منهج محسوب. ولكن حتى لو خالفناهم هؤلاء في منهج التعامل مع القرآن، إلا أنه لا ينبغي اتخاذ الجانب المقابل بشكل كامل. فالقرآن يقول: إن الكون بأسره وقوانينه من أصغر شيء فيه إلى أكبر شيء مسخر لإرادة الله تعالى، وكل ما فيه من حجر ومدر وطير ورياح بمنزلة الجنود بين يدي الله سبحانه، ويكفي أن تتعلق إرادته سبحانه بتحويل هذه الكائنات إلى عسكر تنفذ أوامره، حتى تتحول. ولكن أصحاب التفسير المذكور أعلاه لا يودون الرضوخ والتسليم بهذه الحقائق القرآنية، وإنما يرون أن المادة والماديات لها أوضاع ثابتة وحالات لا تتغير، ويفسرون آيات القرآن وفق هذه المصادر غير المسلمة. وهذا هو الخطر الذي أحذر منه وليس في نشر هذا الفكر أي خدمة

للإسلام، بل فيه كل الخدمة للاستعمار.

وفي هذا السياق أردد خلف قائد الثورة الإمام الخميني[٣] إن قانون الجمهورية الإسلامية يسمح بتشكيل الأحزاب السياسية، حتى الأحزاب غير الإسلامية، ونقبل هؤلاء شرط أن يتساوى ظاهرهم وباطنهم ولا يضمروا شيئا ويظهروا خلافه؛ بحيث يحملون لواء الإسلام ويقاتلون في صفوف أعدائه، على كل صاحب فكر أن يقدم فكره للآخرين مهما كان، ويبقى للآخرين حق القبول أو الرفض. وهذا ما كان يحصل عبر التاريخ، لقد قيل عبر التاريخ الكثير من الكلام في مواجهة الإسلام وقد حفظ العلماء والفقهاء هذه الأفكار في كتبهم ولم تبق هذه الأفكار في كتب أصحابها. وكمثال على ذلك لاحظوا بعض الكتب المتخصصة في الجدل مثل كتاب الاحتجاج، أو بعض الموسوعات التراثية مثل كتاب «بحار الأنوار»، لتعلموا كيف خلدت هذه الكتب الأفكار الموجهة ضد الإسلام وطرحت أجوبة الإسلام في مقابلها بكل متانة وقوة. هذا تاريخ الفكر الإسلامي وهذا مستقبله، ولا يظنن أحد من شبابنا ومثقفينا أن الإسلام يحفظ بمنع الأفكار المخالفة وحجبها. إن الإسلام لا يحفظ إلا بقوة واحدة هي قوة العلم والمعرفة وقوة الدليل، ويؤسفني أنني لا أستطيع الخوض في تفاصيل هذا الموضوع «ولي عذري الذي أرجو أن يكون مقبولا». وعلى أي حال أتمنى لكليتكم التوفيق والتقدم في سبيل الرسالة التي تحملونها.

يقول المراقبون ووسائل الإعلام المهتمة بأن ما يحصل في إيران في هذه الأيام لا نظير له عبر التاريخ، وهذا الاستقبال المتوقع يوم الجمعة[٤] لا يوجد يوم مشابه له في تاريخ البشرية. وأنا هنا أسأل الإخوة والأخوات: أي قوة في الدنيا تستطيع أن تحوِّل ما لا يقل عن ثلاثين مليونا من الناس إلى ثوريين؟ يعلم المطلعون على تاريخ الثورات العالمية أنه لا ثورة في العالم لها شعبية وانتشار الثورة الإسلامية، وكمثال على ذلك انظروا إلى أبطال القوة الجوية، لم يكن يتوقع أحد أن تكون الروح الثورية والإيمان كامنا في قلوب هؤلاء الأبطال

وأرواحهم، تمردوا على أوامر السلطة وتعرضوا لتهديدات عنيفة لو تعاونوا مع الإمام الخميني عند دخوله إلى البلاد حتى خضعت السلطة نفسها لرغباتهم وسمحت لهم بالتعاون مع الإمام فسمّوا الرحلة التي كان من المقرر أن تحمل الإمام إلى طهران «رحلة الثورة»، وما أجمل وقع هذا الاسم على الأسماع. نعم أين أولئك الذين يقولون إن الدين بضاعة العجائز والقرويين وسكان الضواحي[٥]، أين هم هؤلاء ليروا كيف أن هذه الثورة التي شارك فيها الفلاح والعامل إلى جانب المحامي والمهندس والموظف والأستاذ جميعا كانوا كتفا إلى كتف، أيُّ قوة في العالم تستطيع تحريك هؤلاء جميعا غير الدين؟

وقد بدأ الأمل يدب في قلبي بأن هذه الثورة سوف تتردد أصداؤها في العالم الإسلامي بأسره، هذه هي قوة الإسلام والدين الذي سكن في قلب قائد هذه الثورة المباركة، وقد سمعت قبل أيام أن كارتر هدد الإمام الخميني بأن الدولتين العظميين تؤيدان حكومة بختيار وعليك أن تنظم حساباتك على هذا الأساس. ولكن وكما هو متوقع من مثل هذا الرجل لم يبال!

لقد عايشت هذا الرجل العظيم مدة اثنتي عشرة سنة حين كنت أتلقى التعليم على يديه، وعلى الرغم من هذه المعرفة المباشرة، عندما زرته في باريس تعرفت على أبعاد جديدة في شخصيته، زادت حيرتي فيه، بل زادت إيماني. عندما عدت سألني بعض الأصدقاء، عما شاهدت فقلت: رأيت عند هذا الرجل أربعة «إيمانات»:

١- **الإيمان بالهدف**: بحيث لو اجتمعت الدنيا بأسرها لما استطاعت أن تزيحه عن هذا الهدف الذي اختاره لحركته.

٢- **الإيمان بالسبيل**: والطريق الذي اختاره للوصول إلى هدفه وهو يشبه في هذا الأمر النبي محمدﷺ.

٣- **الإيمان بقومه**: نعم يؤمن الإمام الخميني بأمته وشعبه ولا أجد

بين من أعرف من الأصدقاء من رجال الثورة أو من غير رجالها من له ثقة بالشعب كثقة الإمام الخميني، حتى أن بعض الناس يحذرونه من ترك الناس له ويطلبون منه عدم الرهان الكامل على الناس، ويبدو أن الأيام تكشف عن صدق ظنه بالأمة والشعب.

٤- **الإيمان بالله**: الإيمان بالله تعالى هو فوق كل ما تقدم وأهمه، لقد قال لي مرة في جلسة خاصة جمعتنا: لسنا نحن من يقوم بهذه الأعمال إنني أشعر بيد الله تسيرنا وتوجهنا.

نعم هذا وعد الله في أكثر من موضع في كتابه الكريم حيث يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[٦]، أو حيث يقول سبحانه في قصة أهل الكهف: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾[٧]. نعم إنني أشعر بوضوح بالهداية الإلهية لهذا الرجل، لقد أعطاه الله قلبا لا يعرف الخوف، ولا تعرف الخشية إليه طريقا. هذا الرجل الذي عانى طيلة ما يقرب من خمسة عشرة عاما من حرب الأعصاب والحرب النفسية، ما زال يحمل روحية الشباب وقلوبهم، لقد جرَّب قول الله وعاين صدق وعده بنصر من ينصره؛ بحيث لا يتهيب موقفا ولا يخشى أحدا في العالم، وليس فقط لا يقيم للدولة العظمى أميركا وزنا، بل لو انضم إليها القطب الآخر الاتحاد السوفياتي لما رف له جفن من الخوف.

ومن الخصوصيات التي تجدر الإشارة إليها هي أن هذا الجبل الذي لا تهزه الشدائد له موعد يومي مع البكاء والتضرع بين يدي الله تعالى لمدة ساعة على الأقل في أسحار أيامه. ما يذكرني بعلي عليه السلام في جمعه بين الابتسامة في محراب الجهاد، والبكاء في محراب الصلاة. أطال الله في عمر قائدنا المفدى، ووفقنا جميعا لنكون الحماة لهذا الدين والمدافعين عنه بسلاح المنطق.

الهوامش

[1] هذا المصطلح القرآني «**العودة إلى الذات**» الذي طرح قبل ألف وأربعمائة سنة تقريبا، نجده موضع اهتمام عدد من الفلاسفة الكبار مثل هيغل وماركس وآخرين. ومن المؤسف أن كتابنا ومفكرينا استوردوا هذا المفهوم من الغرب بدل اكتشافه من مصدره وفهمه في هذا السياق.

[2] سورة البقرة: الآية ٣.

[3] الفارق الأساس بين الإمام الخميني وغيره أن الإمام يفي بما يعد، ويتطابق عنده القول والعمل، بينما الآخرون يفرشون الأرض بالورود فإذا تمكنوا أنكروا كل ما وعدوا به.

[4] يوم دخول الإمام الخميني إلى طهران.

[5] يستخدم الشهيد مطهري تعبير الجنوبيين في إشارة إلى جنوب طهران التي هي محل سكن الفقراء، والطبقات الاجتماعية الفقيرة في زمن الشاه. (المعرب)

[6] سورة محمد: الآية ٧.

[7] سورة الكهف: الآية ١٣.

القسم الرابع

العدالة الاجتماعية

العدالة الاجتماعية

تحدثنا في أماكن عدة بشكل مجمل حول الأركان الثلاثة التي نعتقد أنها الأصل في ديمومة الثورة الإسلامية وبقائها، وهذه الأركان هي: العدالة الاجتماعية، الاستقلال والحرية، والمعنوية. وسوف نحاول في هذا القسم بسط الكلام حول الركن الأول من هذه الأركان.

نعلم جميعا أن التاريخ الإسلامي في النصف الأول من القرن الأول الهجري شهد ثورة كبيرة على الوضع الذي أسس له الخليفة الثالث عثمان بن عفان؛ حيث إن عثمان هو الحاكم الأول في الإسلام الذي أسس أساس الطبقية الاجتماعية في العهد الإسلامي. وهو على الرغم من قبوله البيعة بشرط العمل بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر، إلا أن ما حصل في ميدان التطبيق والعمل مختلف عما جرت عليه البيعة. فقد فتح الباب في عهده على الحيف على الأموال العامة. وهو ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام في خطبة له يبرر فيها قبوله تحمل مسؤولية الحكم بعد عثمان، بانقسام الناس إلى جوعى يتضورون جوعا، وأغنياء يئنون من التخمة. وهذه واحدة من نقاط الضعف التي تسجل على عثمان زمن خلافته. وكانت العناوين التي توزع على أساسها الأموال العامة في ذلك العهد عناوين عشائرية، حتى ظهرت طبقة من الأثرياء لم يكن يعرفها المجتمع الإسلامي من قبل، والوجه الثاني من وجوه سوء الإدارة عند عثمان هو تسليمه السلطة لعدد من المحسوبين عليه وفق المعيار السابق؛ أي من تربطهم به رابطة القربى والدم.

وعندها بدأت الأصوات ترتفع من كل جانب. وسرت روح الاعتراض في كل زاوية من زوايا الدولة الإسلامية، وكُتِبت إليه الكتب ودُوِّنت المطالبات، ولما لم تصل هذه المطالبات إلى نتيجة تذكر، اجتمع عدد من الناس من مصر والكوفة وقدموا المدينة للاعتراض على السياسة

العثمانية وعاونهم على الاعتراض أهل المدينة نفسها، وانتهى الأمر بثورة أدت إلى مقتل عثمان بعد محاولات مقاومة وحصار.

والشخص الوحيد الذي كان مقبولا من الثوار في حياة عثمان هو الإمام علي عليه السلام، بل وعثمان نفسه كان يظهر له الاحترام ويقبل رأيه أحيانا ويرفضه أخرى، وقد حاول الإمام علي عليه السلام أن يكون ساعي خير بين الطرفين في محاولة للتوفيق وتقريب وجهات النظر، وكان ينصح عثمان بتغيير أسلوبه في الحكم ومنهجه في إدارة البلاد، والاستجابة لمطالب الثوار بطرد الفاسدين المحيطين به ومن هؤلاء الذين كانوا حوله مروان بن الحكم الذي أخرجه النبي صلى الله عليه وآله وأباه[1]، من المدينة لما استشعر خطر وجودهما فيها، وأعادهما عثمان عندما ولي الخلافة. ويبدو أن عودة مروان إلى المدينة كانت رغبة قديمة عند عثمان حيث ينقل المؤرخون أنه توسط له عند أبي بكر، وكذلك فعل في عهد عمر فأبى ذلك، فلما وصلت إليه السلطة لم يكتف بإعادتها إلى المدينة، بل جعلهما من حاشيته المقربين، فكان الرجل الثاني في الدولة الإسلامية بعد عثمان[2].

وفي عهد عثمان حاول الإمام علي عليه السلام مرارا أن يخرج مروان من المدينة، وكان يعد عثمانُ بذلك تارة ويتراجع عن وعده أخرى. ولم تكن الثورة أمرا مفاجئا ولم يكن قتل عثمان اغتيالا غير مسبوق بمقدمات، بل كان نتيجة تراكمات أدت إلى ذلك الحدث، الذي كاد يهز أركان الدولة الإسلامية ويعصف بالمجتمع الإسلامي وقتها. وبعد مقتل عثمان هرع الناس من كل الفئات الاجتماعية والقومية يطالبون عليا عليه السلام بقبول البيعة وتحمل مسؤولية الخلافة.

وقد شرح الإمام علي عليه السلام في إحدى خطبه في نهج البلاغة هذه الحادثة وصوّر كيفية دعوة الناس له إلى البيعة. ويستفاد من كلام الإمام علي عليه السلام أن الثورة التي حصلت ضد عثمان لم تكن ثورة تقتصر على فئة من الناس دون غيرهم، بل كانت ثورة عامة فيها

الفقير والغني، الرجل والمرأة، العربي وغير العربي، الحجازي والمصري إلى غير ذلك من الفئات الاجتماعية والعرقية التي كانت تشكل جماعة المسلمين في ذلك العصر. وقد امتنع الإمام علي عليه السلام بادئ الأمر عن قبول البيعة، ويبدو أن الغرض من رفض بيعتهم في البداية كان يراد منه إيصال رسالة إلى الناس مفادها أنه لم يكن ذهاب عثمان بنفسه مطلوبا ومرغوبا له عليه السلام، بل المطلوب هو تغيير منهج الحكم وأدواته أي تغيير بنية الدولة التي أسسها عثمان، حتى لا يظن الناس أن عثمان قد ذهب وبعد أن ذهب تهدأ نفوس الثوار وتعود الأمور إلى سيرتها السابقة في زمانه؛ ولذلك يقول الإمام علي عليه السلام في إحدى خطبه: **«دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكرت، واعلموا إني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم. وأنا لكم وزيرا خير لكم مني أميرا»**[3].

ويشير بعد ذلك إلى الذين تولوا مناصب في إدارة الدولة وليسوا لها بأهل، أو جمعوا من أموال المسلمين ما ليس لهم بحق، فيقول: **«ألا وكل قطيعة أقطعها عثمان أو مال أعطاه من مال الله ، فهو مردود على المسلمين في بيت مالهم... لو وجدته قد تزوج به النساء واشتري به الإماء»** ويشير إلى نقطة تبلغ من الدقة والغرابة الغاية؛ حيث يقول: **«إن في العدل سعة»** وقد قال هذه الكلمة في جواب من اقترح عليه المهادنة ومداراة بعض الذين ربما يتضررون من سياسته الإصلاحية التي أعلنها لدى قبوله البيعة. نعم لهؤلاء الناصحين قال: **«إن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»**[4]؛ أي أن هؤلاء الذين لا يرضون بعدالتي سوف لن يقبلوا بجوري، ومن لم يتسع له عدلي فلن يتسع له جوري؛ لإنني إن سايرتهم في ظلمهم سوف يطلبون المزيد.

إذاً، أراد الإمام علي عليه السلام، أن يبني حكومته الأولى بعد الثورة على عثمان على الوضوح والصراحة، فلا يخفي شيئا من برنامجه أو

مشروعه الإصلاحي عن الناس، ومن أراد أن يبايعه على هذه الأسس التي أعلنها فبها، ومن لم يرد فهو وشأنه، وربما كان ميسورا للإمام علي عليه السلام أن يقبل البيعة من دون التصريح بما يريد وبعد ذلك ينفذ البرنامج الذي يشاء، ولكنه رأى أن في هذا الفعل استغفالا للناس الأمر الذي لم يرده ولم يرضه.

على هذه الأسس أراد الإمام علي عليه السلام، أن يبني دولته، وقد قبل تحدي المعارضين من اللحظة الأولى؛ حيث أثار هذا البرنامج السياسي حفيظة كثير من الذين كانوا من المقربين في العهد السابق، وعلى رأسهم طلحة والزبير، الصحابيان اللذان كان لهما الكثير من الخدمات على الإسلام في زمن النبي صلى الله عليه وآله. لم يرق هذا البرنامج لهما فقد كانا من أبرز المستفيدين من العهد العثماني، وقد وجد الزبير مثلا أن سهمه من بيت المال سوف يصبح مساويا لسهم غلامه، وطلحة مساو له في الخسارة، فعزما على التمهيد لحرب الجمل.

بعد حرب الجمل، اشتعلت حرب صفين بين الإمام علي عليه السلام وبين معاوية الذي كان من المقربين في عهد عثمان، والذي كان الآمر الناهي والحاكم المطلق في الشام مدة عشرين سنة من حكم عثمان، وقد أسس مملكة ثابتة الأسس والأركان، وبعد تسنم علي عليه السلام مسند الخلافة أبى أن يقره على ولاية الشام، وعزم على عزله، فنصحه الناصحون أن لا يفعل، وينتظر به حتى تستقر دولته فأبى فكانت حرب صفين.

وبعد حرب صفين وما نجم عنها مما دوَّنه المؤرخون وهو معروف، وكان من نتائج الشعار الذي رفعه الإمام علي عليه السلام أن قضى مدة خلافته التي تجاوزت السنوات الأربع منتقلا من حرب إلى حرب، ولم يهنأ له بال إلى أن قضى شهيدا في المحراب.

ومن هنا، يمكن القول دون مبالغة: إن فترة خلافة علي عليه السلام من أكثر الأيام مرارة في حياته، ولكنها بحساب القيم والمبادئ الدينية

من أكثر فترات التاريخ خصوبة في التأسيس لمجتمع العدالة؛ حيث استطاع عليه السلام في هذه الفترة القصيرة أن يضع بذرة العدالة في تراب المجتمع الإسلامي. ولو أن عليا عليه السلام هادن حتى يتسنى له الحكومة لمدة عشرين سنة لما وصلنا الإسلام كما وصل، ولما عرفنا العدالة كما نعرفها في النموذج العلوي، ولوصل إلينا اسم علي عليه السلام بوصفه خليفة كمعاوية.

يعلمنا منهج علي عليه السلام أن تغيير النظام السياسي، لا يعود بنفع أساسي مهما تغيرت المواقع الإدارية ومن يشغلها واستُبدل الأفراد الصالحون بغيرهم، إن لم ينضم إلى ذلك تغيير الرؤية الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة، في النظام السابق.

كانوا يقولون لعلي عليه السلام افعل ما تريد، إعدل إن شئت، سوِّ بين الناس في العطاء، لست مدعوا ولا مضطرا لممارسة سيرة السابقين، ولكن لا تمارس العدالة «بمفعول رجعي»، كما يقال. إبدأ بعدالتك من الآن فصاعدا، وما مضى، فقد فعله غيرك فاترك لغيرك ما فعل. ولكنه كان يقول لهؤلاء إن القوانين الإلهية لها مفعول رجعي: «**إن الحق القديم لا يبطله شيء**»[٥]، نعم مرور الزمن لا يبطل الحقوق في القانون الإلهي، فلا بد من عودة الحق إلى أصحابه، مهما تقادم عليه الزمن.

وبالنسبة لمستقبل ثورتنا الإسلامية إن أهم التحديات التي تواجهنا هي العدالة الاجتماعية، والسؤال الذي يلح على أذهاننا، ولا بد من تحديد الموقف النظري منه هو: ما هو تصورنا للعدالة الاجتماعية؟ وأي معنى نفهم من هذا المصطلح عندما نستخدمه في أدبياتنا الثورية والفكرية؟.

وتظهر أهمية طرح هذا التساؤل بعد أن نعرف أن التصورات حوله مختلفة، فبعض الناس يعتقد أن الناس الذين يعيشون في مجتمع واحد لا بد من أن تتساوى فرصهم وحقوقهم وواجباتهم، مهما اختلفت وتفاوتت استعداداتهم وقدراتهم الذاتية. وعند هؤلاء يجب أن تبلغ

المساواة حدود المساواة في كل شيء حتى في نوع اللباس وقماشه الذي يخاط منه، ويؤمن هؤلاء بضرورة أن يقدم كل فرد من أفراد المجتمع بقدر استعداده، ويأخذ من المجتمع بحسب حاجته، وهذه الرؤية كما هو ملاحظ لا تنظر بعين الاهتمام إلا إلى المجتمع ولا تقيم للفرد وزنا، فالمجتمع هو الأصيل دون الفرد وبالتالي المجتمع هو الذي يعمل ويكتسب وهو الذي من حقه أن ينفق.

العدالة وأصالتا الفرد والمجتمع

وفي مقابل هذه الرؤية إلى العدالة الاجتماعية، توجد رؤية أخرى تؤمن بأصالة الفرد، بدل أصالة المجمتع، وما دام الفرد هو الأصيل، فلا بد من فتح باب الحرية الاقتصادية والسياسية على مصراعيه، ليحصل كل فرد على ما يريد ويكتسب ما يستطيع اكتسابه، ولا يدخل ضمن مسؤوليات الفرد ما يصيب غيره، من بؤس وشقاء ويمكن تأمين الحد الأدنى الذي يضمن استمرار الفقراء على قيد الحياة من الضرائب التي تجبى من الأغنياء.

وهنا يبدو التناقض بين العدالة الاجتماعية من جهة، والحرية الفردية من جهة أخرى، ووجه التناقض أن على النظام الاجتماعي أن يختار أحد الأمرين: إما العدالة الاجتماعية على حساب الحرية الاقتصادية، وإما العكس أي الحرية الاقتصادية على حساب العدالة الاجتماعية، فإن العدالة إذا صارت في رأس قائمة الأولويات فلا بد من التضحية بالحرية الاقتصادية على الأقل بعض مواردها ومصاديقها، وإذا كان المراد إطلاق الحرية الاقتصادية وانتزاع كل قيودها، فلا يمكن تحقيق العدالة بالشكل الذي يريده أصحاب التصور الأول.

وينقسم العالم المعاصر إلى اتجاهين لكل منهما جغرافياه الخاصة به، والآن يبدو أن عالما جديدا وجغرافيا مختلفة في طور التشكل والتحقق، إلى جانب الرأسمالية والشيوعية هي الاشتراكية[٦]، وهذه الرؤية تدعي أنها تستطيع التوفيق بين حقوق كل من الفرد والمجتمع؛

ولذلك لا ترى كل ملكية فردية استغلالا، بل ترى أن العدالة الاجتماعية بالشكل الأول هي نوع من أنواع الظلم ودرجة من درجاته، فإن من الظلم أن يمنع عامل من جزء من حاصل عمله قهرا ولو لمصلحة المجتمع، ولكن أن يتخلى الفرد عن جزء من حاصل عمله لمصلحة آخر عن طيب نفس واختيار فهو أعلى درجات الإنسانية.

وهكذا تعتمد هذه الرؤية شعار الدعوة إلى مواجهة الاستغلال، دون أن يؤثر ذلك على الإرادة الإنسانية والحرية الفردية، ولتدعو الناس إلى التنازل عن جزء من حاصل أتعابهم إلى الآخرين وسوف يفعلون والرهان على الرقي الإنساني الذي يتمتعون به، وهذا ما يعبر عنه في الغرب بالاشتراكية الأخلاقية، وهذا هو ما كان يسعى إليه الإسلام منذ البداية. والفارق الأساس بين الإسلام وبين غيره أن الإسلام أقر الشعار وأقر وسائل وأساليب تحقيقه بشكل دقيق.

وقد روي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: أنه سأل بعض الأشخاص عن حد الأخوة بينهم؟ فقالوا: على أفضل ما يكون. فسأله أيمد أحدكم يده إلى كم أخيه فيأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء؟ فقالوا: لا فقال: إذا أين هي المحبة والأخوة بينك؟!

إذاً، الأخوة الإسلامية التي يريد الإسلام تحقيقها في المجتمع هي أخوة التطوع لا أخوة الإكراه، حتى لو كان إكراها ناعما بحكم القانون. أو أن نقول كما تقول الشيوعية يجب أن يأكل الجميع فتات ما تقدمه الدولة لهم، فالكل أجير عند الدولة، الأخوة والمشاركة في الحياة المادية أمر يحث عليه الإسلام ويطلبه، ولكن ليس بأي شكل وأي ثمن بل من خلال تحقيق الرابطة الروحية بأن تصبح الأرواح روحا واحدة بالدرجة الأولى، وأما الجيوب فلتتوحد في الدرجة الثانية. وأما أن تتوحد الجيوب وحدها مع افتراق الأرواح، أو أن نفرغ جيوب الناس لحساب جيب الدولة الأكبر[٧] لتتصدق على الناس من فضلاتها كل بحسب حاجته، فهو أمر لا يقره الإسلام.

التصور الإسلامي للعدالة

وحاصل الكلام في مفهوم العدالة الاجتماعية أن الناس يختلفون في فهمهم للعدالة، ولكن ما هو التصور الإسلامي الصحيح للعدالة؟ هل يقبل الإسلام العدالة في نسختها الشيوعية؟ أم أنه يوافق الرأسمالية في تصورها لهذا المطمح الإنساني؟ أم أن له رؤيته المختلفة عن كلتا الرؤيتين؟ ... وما أود تأكيده هنا هو اهتمام الإسلام بالمعنى والمعنويات. والفرق الأساس بين الإسلام وسائر التيارات والمذاهب والأديان هو اهتمامه المضاعف بالبعد المعنوي من حياة الإنسان، بل بعده الأساس الذي يبنى عليه ويؤسس. وفي تاريخنا نماذج نفتخر بها من المحاولات الهادفة إلى الدمج بين العدالة الاجتماعية وبين البعد المعنوي. مثلا: في عام فتح مكة ارتكبت امرأة جريمة السرقة وكان من اللازم أن يقام عليها الحد، وكانت هذه المرأة من علية القوم ووجهائهم، فوسّط أهلها أسامة لما يعلمون من حب النبي له، فسعى إلى النبي صلى الله عليه وآله يكلمه في أمرها. فتلون وجه رسول الله عليه السلام وهو يكلمه، ثم قال له: **أتشفع إلي في حد من حدود الله؟!** فقال أسامة: أستغفر الله يا رسول الله. ثم قام رسول الله عشيتئذ فأثنى على الله عز وجل بما هو أهله، ثم قال: **«أما بعد فإنما هلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف فيهم تركوه، وإذا سرق الضعيف فِيهم أقاموا عليه الحد. والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»**، ثم قطع يد تلك المرأة[٨].

ومن ذلك ما ينقل عن الإمام علي عليه السلام؛ حيث يروي ابن أبي رافع يقول: كنت على بيت مال علي بن أبي طالب عليه السلام وكاتبه، وكان في بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة، قال: فأرسلت إلي بنت أمير المؤمنين عليه السلام فقالت لي: بلغني أن في بيت مال أمير المؤمنين عليه السلام عقد لؤلؤ، وهو في يدك وأنا أحب أن تعيرنيه أتجمل به في أيام عيد الأضحى. فأرسلتُ إليها: عارية مضمونة؟ يا بنت أمير المؤمنين، فقالت: نعم عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام. فدفعته إليها، وأن أمير المؤمنين رآه

عليها فعرفه. فقال لها: من أين صار إليك هذا العقد؟ فقالت: استعرته من بن أبي رافع، لأتزين به في العيد ثم أرده. قال: فبعث إلي فقال لي: أتخون المسلمين يا ابن أبي رافع؟ فقلت: معاذ الله أن أخون المسلمين. فقال: كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير إذني ورضاهم؟! فقلت: يا أمير المؤمنين، إنها ابنتك وسألتني أن أعيرها إياه تتزين به، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة، فضمنته في مالي وعلى أن أرده سليما إلى موضعه، قال: فرده من يومك وإياك أن تعود لمثل هذا فتنالك عقوبتي، ثم أولي لابنتي لو كانت أخذت العقد على غير عارية مضمونة مردودة، لكانت إذا أول هاشمية قطعت يدها في سرقة[٩].

هذه الحساسية وهذه الدقة التي يبديها أئمتنا وقادتنا، هي ما يجب أن تحافظ عليه الثورة الإسلامية إذا أراد قادتها وشعبها الاستمرار، ولا مجال للاستمرار بغير هذه السيرة وهذا المنهج.

الهوامش

(١) يقول ابن كثير في البداية والنهاية عن مروان بن الحكم وأبيه: وقد كان أبوه الحكم من أكبر أعداء النبي (ص)، وإنما أسلم يوم الفتح وقد سكن الحكم المدينة، ثم طرده النبي (ص) منها إلى الطائف، ومات بها، ومروان كان أكبر الأسباب في حصار عثمان لأنه زور على لسانه كتابا إلى مصر بقتل أولئك الوفد ولما كان مستوليا على المدينة لمعاوية كان يسب عليا كل جمعة على المنبر وقال له الحسن بن علي: لقد لعن الله أباك الحكم وأنت في صلبه على لسان نبيه (ص) فقال: لعن الله الحكم وما ولد ، والله أعلم». (ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص ٢٤٨.)

(٢) انظر: بحار الأنوار، الجزء ٣١، ص ١٧٠.

(٣) الإمام علي (عليه السلام)، **نهج البلاغة**، الخطبة ٩٢.

(٤) الإمام علي بن أبي طالب، **نهج البلاغة**، قسم الخطب، الخطبة ١٥.

(٥) المصدر نفسه، الخطبة ١٥.

(٦) والفرق بين هذا النوع من الاشتراكية والاشتراكية التي تتخذها الشيوعية اسما وشعارا، هو: أن هذه الاشتراكية تجمع بين الثورة والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

(٧) قرأت في إحدى الصحف خبرا منقولا عن الصحافة السويدية أنهم سألوا أحد السويديين ما هي الاشتراكية؟ فقال: الاشتراكية هي أن تعطي واحدة من البقرتين اللتين عندك لجارك الذي لا يملك واحدة. والرأسمالية أن تبيع بقرة منهما وتشتري ثورا وتؤسس مزرعة. والشيوعية أن تصادر الدولة بقرتيك وتتصدق عليك كل يوم بكأس من الحليب المخفف بالماء. والنازية أن تصادر الدولة بقرتيك وتعتقلك وترسلك إلى أفران الغاز. ويعلق الكاتب الإيراني على هذا الخبر قائلا والإيرانية أن تصادر الدولة بقرتيك فترسل إحداهما إلى المسلخ وتحلب الأخرى وتلقي حليبها في مصارف المياه المبتذلة.

(٨) **سنن النسائي**، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٣٠م.، ج ٨، ص ٧٢.

(٩) الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، مؤسسة آل البيت، الطبعة الثانية، قم، ١٤١٤ هـ.، ج ٢٨، ص ٢٩٢.

القسم الخامس

الاستقلال والحرية

الاستقلال والحرية

محور كلامنا في هذا القسم هو مفهوما الحرية والاستقلال. إن الطفل ما دام صغيرا، فهو بحاجة إلى ولاية أبيه أو أمه أو أي ولي آخر، ولا يستطيع أن يستقل بقراراته. ولا بد له من الاستجازة وطلب الإذن لكل عمل يريد القيام به، وتعد هذه الحاجة إلى الولاية درجة من درجات عدم الاستقلال والتبعية.

وهناك نوع آخر من الأفراد لا يتمتعون بالاستقلال هم العبيد، فهؤلاء لا يحق لهم اتخاذ القرارات الشخصية بشكل مستقل، بل يحتاجون إلى الإذن عند كل تصرف يعزمون على القيام به حتى لو كان في أمر شخصي، أو أن المولى نفسه هو من يتخذ القرارات المتعلقة بأشخاصهم ويتصرف بما يرى فيه مصلحتهم.

وهناك نوع ثالث من الأشخاص التابعين من دون أن يكون أحدهم صغيرا أو عبدا أو مجنونا. فالخدم في كثير من الأسر تابعون لمخدوميهم، والفلاحون في الأنظمة الإقطاعية أيضا تابعون للإقطاعي[1].

وما أشرت إليه مجرد نماذج وأمثلة لحالات التبعية بين الناس، وتوجد أمثلة أخرى وأشكال من التبعية مختلفة[2]. وكما تطرح مسألة التبعية والاستقلال عند الحديث عن الأفراد تطرح هذه المسائل عند الحديث عن المجتمعات أيضا، بل ربما يكون طرحها أولى وآكد. ففي زماننا هذا لم تعد مسألة الحرية والاستقلال مطروحة بالنسبة للأفراد بالمعنى الذي كانت تطرح قديما، وإنما المطروح والمعروض للبحث والنقاش هو استقلال المجتمعات وليس الأفراد.

التبعية الاجتماعية

على صعيد المجتمعات يلاحظ كل من ينظر إلى خريطة العالم

السياسية، وجود دول تمارس دور السيد أو «الإقطاعي» على دول ومجتمعات لم تنل من الاستقلال إلا اسمه، وفي الواقع العملي هي تابعة. وقد جرَّبنا في منطقتنا في الخليج الفارسي والمحيط الهندي الذي شهد صراعا بين الدول الكبرى للسيطرة عليه، وهذا الصراع كانت تدور رحاه بين أمريكا من جهة وسائر الدول الكبرى من جهة أخرى؛ حيث تحاول كل واحدة من هذه الدول أن تضع يدها على المنطقة للحفاظ على مصالحها. وكانت أمريكا حتى ما قبل انتصار الثورة هي الأقوى والأكثر نفوذا من خلال عميلها المطيع الشاه، وكان وضع اليد هذا بشكل غير صريح ولا مباشر وتحت شعار الرغبة الإيرانية بالحفاظ على أمنها، وتحت حجة الأمن هذه كانت الشركات الأميركية تضع يدها على النفط الإيراني بشكل يشبه الغارة والنهب، وفي المقابل ما يباع من هذا النفط كان يعود إلى جيوب الشركات الأميركية مقابل صفقات الأسلحة الحديثة التي كانت تُصَدَّر إلى إيران فترة من الزمن ثم تعاد لاستبدالها بأحدث منها. وكان يلعب الشاه في تلك الفترة دور الشرطي في الخليج، وإن كان لا يصرح بهذا الدور، بل الشعارات التي كانت ترفع وتغطي هذه العملية شعارات وطنية. هذا حول الاستقلال وعدم الاستقلال السياسي.

وأما في ميدان الاقتصاد فيعرف القاصي والداني أن إيران كانت مضطرة للتخفيف من نتاجها الزراعي ومن تربية المواشي، لتحتاج إلى شراء القمح والسكر واللحم من الخارج، وقد حُصِرت الصناعة الإيرانية في زمان الشاه بالصناعات الخفيفة والاستهلاكية، وحتى وسائل إعلام النظام السابق كانت تقر بأن أكثر من ٩٥ في المائة من احتياجات البلد تستورد من الخارج. ولم تكن إيران مكتفية ذاتيا في أي مورد من الموارد، وهذا الأمر الذي كنا مبتلين به هو أسوأ أنواع الرق والأسر، ولم نكن تابعين للغرب في مجال الاقتصاد فحسب، بل في سائر المجالات أيضا كنا نعاني من هذه التبعية والارتهان للخارج[٣].

ومن هنا، فإن الإمام الخميني منذ أوائل إقامته في باريس كان يصر تكرارا في البيانات السياسية التي يرسلها إلى إيران على حث الناس على الزراعة ومن بينها زراعة القمح، ونعلم جميعا كم كان لهذا الأمر تأثيره على حياتنا الاقتصادية خصوصا أن هذه السنة من السنوات الخصبة[٤].

إن أي شعب أو بلد يريد الوقوف على قدميه والاستقلال يستطيع ذلك، ويتوقف ذلك على إرادة صلبة لرجال يعزمون على كسر القيود. مثلا الإيراني نفسه الذي كان يستورد القمح من أميركا يمكنه الوصول إلى حد الاكتفاء الذاتي، وليس هذا أمرا مستحيلا، وسوف نصل إن شاء الله إلى استقلالنا الناجز في جميع المجالات وليس في الاقتصاد وحده.

لا شك في أنكم تذكرون أن الشعب الإيراني كان يهتف في التظاهرات بشعار جميل: «**استقلال، حرية، جمهورية إسلامية**» وهذا دليل على أن هذا الشعب يريد الاستقلال والوقوف على قدميه، على الصعد كافة يريد أن يستقل علميا بأن يخطط لنفسه وإدارة شؤونه، وأن يخطط لإدارة حياته الاقتصادية والسياسية، وفوق ذلك كله وأهم منه الاستقلال الثقافي والفكري.

التبعية الثقافية

إن أخطر أنواع الاستعمار هو الاستعمار الثقافي، بل هو مقدمة لكل أنواع التبعية والاستعمار، فإن المستعمر حتى يصل إلى ما يريد في مجال الاقتصاد، عليه أولا أن يستولي على شخصية الشعوب الثقافية ويستعمرها ثقافيا، فيشوه في عقول أفراد هذه الشعوب كل ما هو داخلي ومحلي من ثقافة وتقاليد، وفلسفة وأدب، ويجعلها أسيرة كل ما هو مستورد حتى في مجال الأدب والفلسفة[٥].

وعلى الرغم من تشابه العلوم في عالمنا المعاصر؛ بحيث لا تستطيع

أمة أن تدعي أن لها علما خاصا بها يختلف عن العلوم الموجودة عند سائر الأمم، ولكن العلم شيء والفكر والثقافة والأيديولوجيات شيء آخر. في هذه الأخيرة تمتاز الأمم عن بعضها وتختلف، وتختص كل منها بثقافة غير التي عند الأمة الأخرى. ولا ينبغي لأمة أن تتنازل عن هويتها لأمة أخرى وإلا فإنها تدخل نفسها طوعا تحت نير عبودية الأمة الموردة للفكر، وما كنا نعاني منه هو هذا الشكل من التبعية قبل أي شكل آخر من أشكال التبعية. لقد عرف تاريخنا الثقافي المعاصر جماعة من المهزومين ممن يسمون أنفسهم بالمتنورين، وبكل أسف ليس عددهم قليلا، وكان هؤلاء فريقين: فريق يدعو إلى الانفتاح على الغرب والبلدان الليبرالية، وفريق آخر كان يدعو إلى الانفتاح على المعسكر الغربي الآخر أي على البلدان الشيوعية. ومن المصائب المضافة إلى ما تقدم أنه ظهر بين هؤلاء فريق ثالث متذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، يلتقط من الشيوعية بعض المفاهيم ويضمها إلى مجموعة من المفاهيم الوجودية، ويلون المجموعتين ببعض المصطلحات الإسلامية، ثم يعلن أن هذا هو الإسلام المحمدي الأصيل ولا إسلام بعده. وأنا أغتنم هذه الفرصة لأحذر من هذا الخطر الداهم، فإننا سوف نخسر استقلالنا باستيرادنا لهذه المذاهب الفكرية، سواء كان هذا المذهب؛ الوجودية أم الشيوعية، أم كان تركيبا هجينا من المذهبين.

لن نحصل على الاستقلال الثقافي بهذه الأساليب، وإننا لن نكون تابعين فحسب، بل سوف نذوب ونضمحل. ولو أننا أمة من دون ثقافة خاصة لكان مبررا أن نستورد ما نستحسن من الثقافات، فلا يمكن للمرء أن يحيى من دون ثقافة، ويحق لنا أن نلتحق بهذا المذهب الفكري أو ذاك، ولكن الطامة الكبرى والمصيبة العظمى أننا أمة لها ثقافتها وتراثها الخاص بها، وليس أي تراث، بل تراثا نعتز به، فلماذا نبيع رطبا بحشف الآخرين.

ولطالما رأينا في أوساطنا وبين مثقفينا أو أشباه المثقفين، بعض

الأشخاص المشغوفين بالمنطق الديالكتيكي بحسب الظاهر، بينما هم لا يفقهون منه إلا ما طرق أسماعهم من مصطلحاته عن طريق الصدفة أو الخطأ، ثم إن الأدهى من ذلك والأمرَّ منه ادعاؤهم أن هذا المنطق غير المفهوم لهم هو منطق الإسلام، دون أن يعي أحدهم أن هذا المنطق الأثير لديهم يتعارض مع الإسلام في أسسه وأركانه بل مع الدين كله.

أو يأتي أحدهم ويسمع أن الموضة الدارجة هي دعوى أن الاقتصاد هو البنية التحتية لأي فكر. فيتعلق قلبه بهذه الدعوى الضبابية التي لا يفهم مؤدياتها ولا تداعياتها، فيقول إن الاقتصاد هو البنية التحتية للإسلام، غافلا عن أن هذه الدعوى هي في واقعها، نفي للأصل المعنوي للدين وربط له بالمادة. أو يأتي مهزوم ثالث ليشنف أسماعنا بما يسمعه عن محاربة الملكية الخاصة، فيحاول إسناد هذه الفضيلة، بنظره، إلى الإسلام دون أن يعلم أن الإسلام له معاييره وضوابطه الخاصة في تنظيم علاقات الملكية الاقتصادية. ولا أريد اتهام هؤلاء جميعا بسوء النية وخبث الأغراض عند إطلاق هذه الأفكار، ولكن مواجهة هذه الأمور وكشف مخاطرها ليست رهينة بسوء النية أو صلاحها. بالله عليكم لو أن أحد الأشخاص أهرق في بناء كمية من البنزين ثم أتى أحدهم وأراد أن يشعل عود كبريت لغرض حتى لو كان غرضا غير خبيث، ألا تحصل الفاجعة الكبرى ويلتهب المكان؟ وهكذا الفواجع الفكرية لا يتوقف حصولها على سوء النية وخبث الأغراض. من هنا، أصر على الاستقلال الفكري أكثر؛ لأن الاستقلال السياسي وإسقاط النظام والاستقلال الاقتصادي والثورة الإسلامية هذه المفاهيم والإنجازات الكبرى لن تصل إلى غاياتها ما لم تكن لنا هويتنا الثقافية المستقلة.

في هذا المجال علينا أن نثبت أن رؤيتنا الكونية ومنظومتنا الفكرية الإسلامية لا تنتمي إلى الغرب ولا إلى الشرق، ولا تحتاج إلى أي من الطرفين بل هي منظومة فكرية لها كيانها المتميز المستقل، الأمر

الذي لا يروق لبعض الناس، وكأن بينهم وبين الاستقلال عداوة، أو أنهم يمارسون التبعية والاستسلام للآخر كما لو كان هواية من هواياتهم، فتجدهم يسعون جاهدين، لتأويل آيات القرآن الكريم بما يتناسب مع الأفكار المستوردة من هنا وهناك. وكأن بينهم وبين الحديث عن الملائكة مثلا خصومة فعندما يرون كلمة ملاك وملائكة في آية بالتأويل للفرار من المعنى الغيبي غير المادي لهذه الكلمة. إن هذا المنهج في تفسير كتاب الله منهج خاطئ، مآله القضاء على الدين؛ حيث إن الغيب والمعاني غير المادية تمثل ركنا أصيلا من أركان الدين.

إن أحد أهم الأدوار التي يؤديها الدين هي شد الإنسان إلى الأعلى، وربطه بعالم أوسع من عالم المادة، وإخضاعه لقوانين عالم المعنى والمعنويات، بدل الخضوع الدائم لقوانين المادة وأسره بأطرها التي تضيق عنه. بل إن الدين يحاول أن يبين للإنسان أن قوانين المادة على الرغم من ثباتها ليست قدرا لا يمكن الفكاك من عقاله، إن الله يتصرف في قوانين المادة التي نعرفها تحت عنوان المعجزة، والقرآن الكريم مليء بالحديث عن المعجزات، فلماذا عندما يشاهد بعض الناس كلمة معجزة، يسارعون إلى اللجوء إلى أزقة التأويلات الخاطئة؟ عندما يصل أحدهم إلى شق البحر لموسى عليه السلام يحاول تفسير هذه المعجزة تفسيرا ماديا ويقول إن البحر كان في حالة الجزر ثم عندما دخل فرعون أتى المد فغرق، إن حية موسى عليه السلام هي قوة بيانه ومتانة حجته التي ابتلعت حججهم. إن هذا الكلام وهذه التفسيرات المتكلفة أقل ما يقال فيها إنها انهزام أمام الفكر الوارد وحمل للقرآن على وجوه لا يدل عليها، وليس هذا الكلام تفسيرا بقدر ما هو تبرير وقلة ثقة بالقرآن نفسه.

إنني أعلن وبكل صراحة ولا أريد إلا النصيحة، إن كل من يحاول تطبيق الأفكار المستوردة على القرآن، يخدم الاستعمار، علم أم لم

يعلم، أراد أم لم يرد، وهذه الخدمة الثقافية للاستعمار أخطر بكثير من الخدمة السياسية والاقتصادية.

الهوامش

(١) بين النظام الإقطاعي في الشرق وبين ما يسمى بالنظام الإقطاعي في الغرب اختلاف وتفاوت. فحالة الفلاحين في الغرب بين الحرية والعبودية؛ فهو ليس عبدا للإقطاعي ولكنه في الوقت عينه لا يستطيع ترك الأرض. وأما الفلاح في الشرق فأمره مختلف ففي إيران مثلا: لم يكن العرف على نحو ما في الغرب. فالفلاح يمكنه البقاء ويمكنه ترك المزرعة والانتقال إلى محل آخر، أو البقاء لسنة جديدة إذا كان مرتاحا لعلاقته بصاحب الأرض، وإذا أراد الانتقال استطاع الانتقال إلى العمل عند إقطاعي آخر، وهكذا يصبح صاحب الأرض بحاجة إلى استرضاء فلاح آخر ليزرع له أرضه. وفي الغرب يجب على الفلاح أن يبقى في الأرض التي يزرعها إلى الأبد هو وعائلته ولا يستطيع الانتقال إلى محل آخر. ولو فرض أنه انتقل سرا إلى إقطاعي آخر من حق الإقطاعي الأول بحسب القانون أن يسترجعه، ويجب على صاحب العمل الجديد أن يؤمن عودته إلى رب عمله الأول. وقد بلغت تبعية الفلاح في الغرب إلى حد أنه يحق لصاحب الأرض أن يبيع الأرض مع الفلاحين الذين يعملون فيها.

(٢) وتجدر الإشارة إلى أن الفرد قد يكون ملحقا بجماعة، وفي مثل هذه الحالة هو في شؤونه الخاصة مستقل يتخذ ما يناسبه من القرارات، وأما في المسائل المتعلقة بالجماعة فبما أن قانون الجماعة هو الحاكم، فلا يستطيع الفرد أن يلزم الجماعة بقراراته. وهذه حالة من التبعية ولكنها تختلف عما نحن فيه.

(٣) من دواعي الأسف أن هذا الحال الذي كنا عليه لم يكن خاصا بنا في إيران، بل هو حال عام لكل بلدان العالم الثالث ولو بأشكال مختلفة قد تزيد وقد تنقص. وأنقل لكم قصة بمثابة شاهد على هذه الدعوى عن العلامة الأميني (رحمه الله تعالى)، حيث ينقل أن أحد النواب العراقيين، في عهد نوري السعيد، زاره مرة فسأله العلامة ممازحا أو عاتبا: حضرة النائب من أين تحصلون على العلم اللدني؟ نحن الطلاب والعلماء إذا أردنا أن نعطي رأيا في قضية علمية نحتاج إلى المراجعة والبحث والدراسة المضنية قبل أن نطرح رأيا علميا في قضية علمية، وأما أنتم في المجلس النيابي فإنكم توافقون أو تردون خلال فترة زمنية لا تتجاوز الساعتين مجموعة كبيرة من مشاريع القوانين. فقال النائب: إن الأمر أبسط مما تصور وسير الأمور بشكل مختلف تماما، نحن نذهب صباحا إلى المجلس، وفي كثير من الأحيان لا علم لنا بجدول الأعمال، فيأتي أحد النواب من المحظيين عند نوري السعيد، ويوزع الأدوار على النواب فيأمر بعضهم بقول نعم

وبعضهم الآخر بقول لا، وهكذا يعرف كل واحد من نواب الأمة تكليفه، ثم يؤتي بمشاريع القوانين ويتم الاقتراع عليها بالقيام والقعود.

(٤) فقد زارني أحد الأشخاص من الكبار في السن من منطقة خراسان، وقال لي: إن المسنين في خراسان لا يذكرون سنة بلغت خصوبة ووفرة هذه السنة وبحدود اطلاعي إن هذه الوفرة ليست خاصة بخراسان، بل تعم سائر المحافظات الإيرانية.

(٥) ينقل أحد العلماء، أنه في أواخر عهد رضا خان، زار وزير الثقافة في إحدى حكومات ذلك العهد جامعة طهران ليحاضر في طلابها. وموضوع محاضرته التمجيد والثناء على الإنجازات العلمية والفكرية لرضا خان. فتحدث وكان مما قاله في تلك المحاضرة أن على جميع الطلاب الإيرانيين أن يعرفوا قدر هذا النظام الذي طور مناهج التعليم وفتح الأبواب للطلبة الإيرانيين ليدرسوا في كثير من الاختصاصات والميادين العلمية في الآداب والعلوم الإنسانية، كما في سائر العلوم كالطب والهندسة وغيرها. ولكن هل يعلم طلابنا الأعزاء حال الأمة الإيرانية على المستوى العلمي قبل هذا العصر؟ وليثبت للطلاب المساكين سوء حال أسلافهم أخرج أحد الكتب المليئة بالخرافات وبدأ بقراءة بعض فقراته، وشرع في السخرية من هذا الكتاب موهما الطلاب أنه ليس عندنا قبل رضا خان إلا هذا النوع من المعارف والثقافة المتدنية.

وينقل هذا الصديق أن الوزارة في ذلك الوقت كانت قد أطلقت مسابقة في المقالة العلمية، ويقول من حسن الحظ أنني شاركت في تلك المسابقة وفزت بالجائزة وكان مقررا أن ألتقي بوزير الإرشاد. فذهبت إليه في مكتبه وعندما رآني في ثياب رجال الدين استغرب ودهش، وقال ما كنت أتوقع أن أراك على هذه الهيئة، لم أكن أصدق أن رجل دين يمكن أن يكتب مقالة من هذا النوع ويفوز بالجائزة الأولى، وبخاصة أن في مقالتك إشارة إلى فكرة تعد من الأفكار الحديثة في علم النفس فمن أين اطلعت على هذه النظرية؟! قلت له: إن هذه الفكرة ليست من بنات أفكاري، ولكنني لم أقتبسها من علماء النفس، وإنما هي مضمون حديث مروي عن أحد الأئمة (عليهم السلام)، وقرأت له الحديث. وبعد ذلك بشيء من الغضب، قلت له: يا معالى الوزير، من منا أعلم من الآخر أنا أم أنت؟ ثم ما هذه الأفكار التي تحدثت بها أمام طلاب الجامعة في محاضرتك؟ لماذا تقدم على خيانة الأمة التي تنتمي إليها؟ هل تعتقد أن ما يدرس في المدارس القديمة هو هذا الكتاب الذي حملته لتعرف بواسطته الطلاب على ثقافة آبائهم وأجدادهم؟ ألم

تكن تدرس المدارس القديمة الأدب وعلوم اللغة؟ ثم إنه لولا التراث الأدبي الذي حفظته تلك المدارس، هل كان باستطاعتك أنت أو غيرك فتح كلية باسم كلية الآداب؟ هل تعلم أن المدارس القديمة كانت وما زالت تدرس الفقه الذي يستطيع أن ينافس أهم المدارس القانونية المعاصرة؟ هل تعلم أن تلك المدارس تدرس علم الأصول الذي يشبه في كثير من أبحاثه آخر ما يطرحه الفلاسفة المعاصرون الغربيون؟ هل تعلم أن الحوزات العلمية تدرس إشارات ابن سينا وأسفار ملا صدرا، ومنظومة السبزواري، وكفاية الآخوند الخراساني، وآثار الشيخ الأنصاري وعشرات الكتب في شتى الميادين العلمية والفكرية؟

تجاهلت كل هذه الكتب وكل هذه العلوم وحملت كتابا يحتوي على مجموعة من الأباطيل، بارك الله الصدق والشرف.

وعلى أي حال من الواضح أن هذا التصرف من معالي الوزير ليس حلقة دون سياق، بل هي جزء من خطة كانت تهدف إلى تقبيح ثقافتنا في عيون الناشئة، لربطهم بالغرب وثقافته.

القسم السادس

المعنوية في الثورة الإسلامية

المعنوية في الثورة الاسلامية

أود في هذا القسم الحديث عن الركن الثالث من أركان الثورة الإسلامية، وهو ركن المعنوية. ويكشف لنا التدقيق في هذا المفهوم أن الاجتماع الإنساني لا يمكن له الاستمرار والبقاء بعيدا عن المعنويات. وهذا الأمر بهذه الحدود من الأمور المتفق عليها بين الناس. حتى الماديون يعترفون بأن الإنسان بحاجة إلى المعنوية. ولكن ما هي هذه المعنوية المتفق عليها وما هو طريق تحصيلها؟

يمكن القول إن المعنوية المقبولة عند الجميع هي مفهوم سلبي، يقصد منها الاعتراف بحاجة الإنسان إلى عدم وجود بعض الخصال في المجمتع الإنساني. أو فقل هي أمانٍ وأحلام بأن يكون الاجتماع الإنساني خاليا من التعصب للعرق والشخص والإقليم، خاليا من الطمع والحرص، أن يكون المجتمع بعيدا هذه المفاهيم والصفات السلبية، فهذا أمر عاقبته خدمة المجتمع الإنساني.

وتوجد نقطة مهمة تستحق الوقوف عندها، وهي أنه لو سألنا بعض هؤلاء كيف السبيل إلى تحصيل هذه المفاهيم؟ لقالوا: إن الإنسان يحمل هذه الصفات في فطرته وأصل تكوينه. ولو سألنا من أين تأتي الأنانية والطمع وتأليه الذات؟ فسوف يقولون: إن كل هذه الصفات السلبية سببها الملكية الفردية؛ حيث إن الإنسان باعتقادهم كان يعيش بوصفه كلا دون أي حدود بين الإنسان وأخيه، ولم يكن يشعر بالفرق بين الأنا والآخر، وقد بدأت هذه الحدود تظهر بعد تعرف الإنسان على الملكية

الفردية، وبالتالي عندما تزول الملكية الفردية سوف تعود تلك الصفات الفطرية إلى الاجتماع الإنساني. الملكية تعني تعلق الأشياء وارتباطها بالإنسان، فعندما يقول أحدهم: هذه السيارة ملكي، أو هذا المتجر لي، وهكذا... مؤدى هذه العبارات أنها ليست لغيري. ومن هنا، نشأت الحدود بين الأنا والآخر، فإذا استطعنا إرجاع الإنسان إلى حالته الأولية قبل أن يتعرف على مصطلحيّ: «لي» و«لغيري» تعود إليه المعنوية وتترك أثرها على حياته الاجتماعية. ومن هنا، نعلم أن المعنوية التي يعترف بها هؤلاء، لا ربط لها بالله والنبي والآخرة وعالم ما فوق الطبيعة، ويعتقدون بإمكان توحيد أفراد الإنسان بإسقاط الملكية الفردية.

وفي مقابل هذه النظرة المتفائلة توجد رؤية أخرى تقول إذا اعتبرنا أن سبب الأنانية ومنشأ الحواجز بين الأنا والآخر هو تعلق الإنسان ببعض الأشياء أو تعلقها به، ولو افترضنا أننا استطعنا فك الارتباط بين الإنسان وبين ما يملك من أمور مادية ورأسمال وما شابه، فهل نستطيع أن نفك ارتباط الإنسان بكل شيء ونمحو من ذهنه فكرة الأنا والآخر؟ يجيب هؤلاء بالنفي: وذلك لأن أكثر المجتمعات شيوعية، تحتاج إلى حزب وجهاز إداري وتفاوت بين الناس في المسؤوليات والمراتب، ومن الطبيعي أنه بدل أن يشعر الإنسان بأن هذه السيارة أو البيت له سوف يشعر أن هذا المنصب، وذاك له دون غيره، وسوف تنشأ بالتالي هذه الحواجز والفواصل بين الناس، إن لم يكن على أساس المال والثروة، فعلى أساس آخر هو الجاه والسلطة. ثم هل يمكن أن نتصور مجتمعا ليس فيه أنا وآخر؟ هل يمكن أن نزيل الرابطة بين الإنسان وابنه وزوجه فيكون هؤلاء أيضا مشاعا بين أفراد الأمة جميعا؟

ومن جهة أخرى يقول المعارضون للرأي الأول: لو وافقناكم في

تصوركم لسبب الأنانية ونشوء الحواجز بين الناس، وأنه العلاقة بين الإنسان والأشياء، ولكن أي علاقة بين الطرفين هي السبب، هل تملك الإنسان للأشياء هو الذي يؤدي إلى تلك النتيجة، أم أن ما يؤدي إلى ذلك هو تملك الأشياء للإنسان؟ وبعبارة أخرى: هل المشكلة في كون البيت أو السيارة أو غير ذلك لي، أم المشكلة تنشأ من أن أكون أنا للسيارة والبيت وغير ذلك؟ ومن الواضح أن المشكلة ليست في الملكية، بل في المملوكية. وبالتالي لا يكون الحل بتحرير الأشياء من الإنسان، بل بتحرير الإنسان نفسه من الأشياء، من خلال تغيير رؤيته وإصلاح باطنه. والسبيل إلى هذا الحل المنطقي الممكن هو استعباد الإنسان لحقيقة موجودة في فطرته، حقيقة هي سبب وجود الإنسان ومتعلق عشقه الذاتي. إن عبودية الإنسان لله هي عبودية دون شك، ولكن لما كان المعبود غير محدود، كانت هذه العبودية عين الانعتاق والخلاص من كل أسر. وهذا ما يقوله حافظ الشيرازي:

ليتني لا أُفتدى من أسر ذاك العذار المشع، فإن أسرى حاجبيك هم المفلحون

ويعرف المطلعون على أدبنا العرفاني أن العرفاء يعتقدون أن المعنوية تكمن في الانعتاق من المملوكية لا من الملكية[1].

يقول حافظ الشيرازي أيضا:

أنا غلام ذاك الذي استطاع أن يتحرر من كل تعلّق بما تحت القبة الزرقاء

ولم يتعلق له قلب إلا بذاك الخد القمري الذي أسعد كل القلوب بعطفه

نعم لا بد من تحرير الإنسان، ولكن الحرية فعل داخلي يبدأ من باطن الإنسان، ولكن مع ذلك ليس صحيحا أيضا القول بعدم تأثير

طبيعة علاقة الإنسان بالأشياء الخارجية؛ لأن طبيعة علاقة الإنسان بالإنسان الخارجية هي التي تسم باطنه بميسمها[٣].

عندما يختل نظام ارتباط الأشياء بالإنسان، ولا تراعى فيه قوانين العدل والإنصاف، سوف يؤدي ذلك إلى اختلال العلاقة الداخلية التي تربط الإنسان بها. وإن هذه الآية التي كان يشير إليها النبي ﷺ في كتبه إلى الملوك والحكام تثير التأمل والتفكير وهي قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[٣].

وقد جرت العادة واقتضى الطبع أن يجر كل إنسان القرص إلى ناره كما يقولون، فعندما تدعو إحدى الأمتين أمة أخرى فإنها تدعوها إلى نفسها، فالعرب يدعون الفرس للانضمام إليهم وهكذا العكس، ولكن القرآن كسر هذه القاعدة ودعا إلى كلمة واحدة لا تحمل لونا خاصا لأي طرف من الأطراف لا الداعية ولا المدعوة، إلى قوانين لا تحيف على أمة لمصلحة الأخرى، وإلى إله لا قرابة بينه وبين إحدى الأمتين، بل رب الأمم جميعا وقوانينه لمصلحة الأمتين. وهذه هي الكلمة السواء التي تقف في الحد الوسط بين الأمم جميعا فلا يكون أحد عبدا لأحد، بل الجميع عباد الله وحده.

هذا ولم يكتف الإسلام بتصحيح الباطن وتطهيره، بل ضم إلى ذلك عدم قبوله بأي شكل ظاهري. فالبعدان من أبعاد الإنسان لا بد لهما من تصحيح وإعادة ترتيب. فلا يقتنع الإسلام منا نحن أبناء البشر أن لا يعبد أحدنا الآخر وكفى، بل لا بد أن نضم إلى ذلك تنظيم علاقة الإنسان بالأشياء ونخضعها لضوابط محددة، لا تسمح بما يسميه القرآن الكريم طغيانا؛ حيث يقول تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى . أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾[٤]. وإلا فإن الاهتمام بأحد

المجالين دون غيره سوف ينقل عدوى الخراب والفوضى من أحد الميدانين إلى الآخر.

فلنعد بعد هذا الاستطراد إلى أصل المطلب، لنتساءل: هل المعنوية بالمعنى المقبول في عصرنا هذا من قبل أكثر التيارات والمذاهب، والتي يعبر عنها بالتيارات الإنسانوية (هيومانيسم)، هل يمكن تحقيقها بعيدا عن المعنى الذي تقترحه الأديان؟ أو فقل هل يمكن تحقق مفهوم الإنسان الإنسان أو المعنوي من دون أن يتبنى هذا الإنسان تفسيرا معنويا لنفسه وللعالم من حوله؟ وهل يمكن تحقق المعنوية بعيدا عن الإيمان بالمبدأ والمعاد؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة جميعا هو النفي.

إن الميزة الأساس لثورتنا هي أنها تقوم على أسس أيديولوجية إسلامية تؤمن بالمعنوية بمعناها الحقيقي، لا المعنوية التي يقترحها السادة الذين أشرنا إليهم قبل قليل، والتي نلاحظ أن إفلاسها واضح للعيان في البلدان التي تؤمن بهذه المعنوية المختلقة. نعم عندما تنتفي الملكية الفردية تنتفي معها المعنوية وتسود الأنانية، وتوجد في عصرنا هذا نماذج عدة ترعرعت في وسط يؤمن بهذا النوع من المعنوية لا تسر الناظرين.

ومن هؤلاء ستالين. أين تربى ستالين ألم يشب في مجتمع كهذا المجتمع المعنوي المدعى، الذي لا يؤمن بالملكية الفردية؟ فلو كان هذا التصور صحيحا لماذا كان هذا الرجل من أكثر أهل الأرض استبدادا وطغيانا مع أنه على المستوى الاقتصادي لم يكن إقطاعيا، ولم يعثر له على سند ملكية، ولم يعرف عنه أنه كان يملك القصور ولا المزارع. وهذا الخلق الستاليني معروف مشهور لا يشكك فيه أحد إلا جماعة من الأتباع، حتى لقد صارت كلمة الستالينية مرادفة للفاشية. وليس ستالين استثناء لا نظير له بل له أمثال كثر ولو كانوا صغارا بالقياس

إليه، والسؤال هو إذا كانت إزالة الملكية الفردية تنتج قهرا الوصول إلى المعنوية، فبماذا يفسر وجود هذا العدد من أمثال ستالين؟!

لا يصل الإنسان إلى الحالة المعنوية المتوخاة عبر قمع الملكية الشخصية، وإننا وإن كنا نؤمن بضرورة تحقق العدالة الاجتماعية؛ لأنها الأساس أو على الأقل أهم أسس المعنوية في المجتمع الإنساني، إلا أن منطق الإسلام يحكم بكون العدالة والمعنوية توأمين لا ينفصل أحدهما عن الآخر. فإن المجتمع الذي يرفل بثوب العدالة، سوف يتجلبب بالكثير من الأمراض الناتجة عن الحرمان والتفاوت والطبقية، وما ينتج عن ذلك من عقد نفسية. والمجتمع الذي ينقسم إلى جوعى ومتخمين، لن يبقى منقسما على ذاته فحسب، بل إنه بمرور الزمن وتراكم المآسي سوف ينفجر ويتشظى من الداخل.

وهذا هو ما يقوله الشاعر الإيراني:

بكل صراحة لا يمكن لي أن أرى جوعي وترف الأقران

المجتمع الذي ينبغي أن يوجد بعد الثورة هو المجتمع الذي يجب عليه أن يولي المعنوية والعدالة اهتماما متوازنا. وأما داء أكثر المجتمعات المعاصرة، حالة التردد بين طرفي الإفراط والتفريط، وقلة مراعاة الاعتدال، ومن المجتمعات المصابة بهذا الداء العضال في معالجة المشكلات الاجتماعية، فإن المجتمع الإسلامي في إيران طالما أنشد نشيد المعنوية والمعنويات، ولكنه لم يعط مفهوم العدالة حقه من البحث والدراسة. والآن وقد حصل هذا التحول المهم من خلال تجربة الثورة الإسلامية نتوقع أن تعالج الأمور بروحية جديدة. ولكن المؤسف أن تبدو إرهاصات تطرف جديد يقضي بتجاهل المعنوية عند الحديث عن العدالة الاجتماعية، لا وألف لا إن العدالة والمعنوية صنوان لا ينبغي التفريط بأحدهما لمصلحة الآخر. وإن ثورتنا الإسلامية إذا تجردت من المعنى سوف تحرم من قوة الدفع الأساسية.

وإنني أستشعر خطرا داهما بدأ ينجم بقرنه في هذا العصر، يحاول دعاته والمروجون له أن يفكوا هذا الارتباط بين الدين والمعنويات وعالم الغيب تحت شعار الترويج لثقافة ثورية في الإسلام. وإن القرآن مليء بالإشارات والتصريحات حول الجنة والنار والآخرة، فكيف يمكن لهؤلاء الأساتذة المحترمين أن يؤلوا هذه المفردات بتأويلات مادية تبعد فكرة الآخرة من أذهان المسلمين، إن العدالة أمر ميسور ومطلوب، ولكنها جناح يحتاج إلى آخر ليحلق الإنسان الفرد أو المجتمع به إلى الأعلى، أو فقل هو إحدى اليدين التي لا تصفق وحدها دون أن تنضم إليها اليد الأخرى.

وهذا ما يفسر موقف الإسلام وإصراره على البعد العبادي من الدين كالإصرار على البعد الحياتي والقانوني. ولا يوجد أحد من الناس يستغني عن العبادة والارتباط بالله، فحتى النبي ﷺ وعلى الرغم من كل مشاغله وعلى الرغم من المرتبة التي نالها عند الله تعالى، ظل مصرا على العبادة والتهجد، حتى شهد له الله بقوله: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾[٥].

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾[٦].

أو ما ورد عن علي عليه السلام الذي كان يغمى عليه من خشية الله في أوساط الليل، هذه المعاني كلها هل يمكن تأويلها لمصلحة معنى آخر من المعنوية يخلو من البعد الغيبي، إن كل تأويل وتفسير مادي لمثل هذه المعاني التي يدل عليها القرآن بصراحة ويحكي عنها تاريخ الإسلام وسجل وقائعه وأحداثه وسيرة أبطاله، خيانة للإسلام وللعدالة الاجتماعية التي يريدها.

الهوامش

[1] يا ابن آدم خلقت الأشياء لأجلك، وخلقتك لأجلي.

[2] نعم ربما يوجد من لا تؤثر على باطنه طبيعة علاقته بالأشياء، بحيث يكون وجود الأشياء حوله وعدمها سيان ولكن حتى لو مثل هذا الفرد فإنه استثناء وليس هو القاعدة.

[3] سورة آل عمران: الآية ٦٤.

[4] سورة العلق: الآيتان ٦ و ٧.

[5] سورة المزمل: الآية ٢٠.

[6] سورة الإسراء: الآية ٧٩.